لوران جونال

الذي أراد أن يكون سعيداً

رواية

ترجمة

زينب بن ضياف

الذي أراد أن يكون سعيدا

لوران جونال

رواية

ترجمة: زينب بن ضياف

مومنت

كل الحقوق محفوظة

مومنت للكتب والنشر

المملكة المتحدة

2018

طبعة ثانية

L`homme Qui Voulait etre Heureux

Par Laurent Gounelle

ما نفكر به هو ما يحدد وجودنا

بأفكارنا سوف نهزم عالمنا

بوذا

1

لم أرد مغادرة "بالي" دون أن أقابله. لا أعرف لماذا. لم أكن مريضا، لطالما تمتعت بصحة جيدة. استعلمت عن أجره لأن إجازتي تقترب من نهايتها، حافظة نقودي تكاد تفرغ. لم أعد أجرؤ حتى على إلقاء نظرة على حسابي البنكي عن بعد. الأشخاص الذين يعرفونه قالوا لي: تعطي المقدار الذي تريده، تزلقه في علبة صغيرة موضوعة على الرف. حسن، قام هذا بطمأنتي، مع أنني كنت منزعجا من تقديم مقدار ضئيل من المال للشخص الذي قالوا إنه عالج الوزير الياباني الأول. كان صعبا أن أجد منزله، كان مخفيا في قرية صغيرة تبعد بضع كيلومترات عن "آبود"، وسط الجزيرة. لا أعرف لماذا لا يوجد في هذه البلاد إشارات مرور، قراءة خريطة يصبح ممكنا عند وجود نقاط تعلم بها، وإلا سيكون الأمر وكأنك تحمل هاتفا نقالا في مكان لا توجد به تغطية. يظل الحل الأسهل طبعا أن تسأل المارة. لطالما كنت رجلا من الذين لا يطرح لهم هذا الأمر إشكالا. أحيانا أظن أن معظم الرجال يتصورون أن في هذا استنقاص لرجولتهم. يفضلون أن يحيطوا أنفسهم بجدار من الصمت بما معناه "أعرف"، يتظاهرون بمعرفتهم لوجهتهم، حتى يتوهوا تماما، فتقول لهم زوجاتهم: أخبرتك بأنه يجب أن نسأل شخصا ما.

الممل في "بالي" هو أن الناس طيبون لدرجة أن يجيبوك دائما بـ "نعم". حقا. مثلا لو قلت لفتاة "أجدك جميلة جدا" سوف تنظر إليك بابتسامة ساحرة وتجيبك "نعم". وعندما تسألهم عن الطريق، يريدون مساعدتك بشدة إلى درجة لا تتمكن معها أن تقر لنفسك بأنهم لا يستطيعون ذلك. وهكذا يقومون بإرشادك إلى مكان ما بطريقة عشوائية حتما.

لذلك كنت منفعلا قليلا عندما وجدت نفسي أمام مدخل حديقة منزله.

لا أدري لماذا تخيلت أنه سيكون منزلا فخما مثل المنازل التي نراها أحيانا في "بالي"، من التي تكون بها مسابح مغطاة وأزهار لوتس، وأزهار ياسمين هندي تبدو من خلف ظلالها أزهار كبيرة بيضاء اللون ذات عطر كثيف وجريء. في الواقع، كان المنزل عبارة عن سكن مكون من حجرات متتابعة صغيرة دون أسوار تتصل إحداها بالأخرى. أما الحديقة فكانت تتسم بالبساطة، جرداء لكن دون أن تكون خالية تماما.

قدمت امرأة شابة لاستقبالي، ملتحفة بالسارنغ، شعرها الأسود مجمع في شينيون، بشرتها ملفحة بالشمس، أنفها صغير وعيناها تنتهيان بزوايا حادة عند الأطراف، لطالما أثارت استغرابي ملامح هذا الشعب المخفي في قلب القارة الآسيوية.

- مرحبا، ماذا تريد؟ سألتني بإنجليزية ركيكة. ويبدو أن طولي البالغ مائة وتسعين سنتيمترا إضافة إلى شعري الأشقر دلاها على أصولي الغربية.

- قدمت لرؤية السيد. آه.. المعلم.. "سامتينغ."

- سوف يأتي الآن، قالت الشابة قبل أن تختفي وسط الشجيرات والأعمدة الصغيرة المتتابعة التي تسند سقف الحجرات.

ظللت مندهشا للحظة، واقفا، في انتظار أن يتنازل سعادته ويحضر ليستقبل زائره المتواضع. بعد مضي خمس دقائق، بدت لي طويلة لدرجة دفعتني للتساؤل عن مدى صحة وجودي هنا، رأيت رجلا يتقدم مني، يبلغ السبعين من العمر على الأقل، وربما كان في الثمانين. كان أول شيء تبادر إلى ذهني هو أنني كنت لأقدم له خمسين روبية لو رأيته يتسول في الطريق. غالبا أعطي النقود للعجائز من المتسولين، أفكر بأنه ليس لديهم خيار حتما وإلا ما كانوا ليستجدوا المعونة في سنهم هذه. الرجل الذي كان يتقدم مني لم يكن يرتدي أسمالا بكل تأكيد، لكن ملابسه كانت بسيطة وساذجة، مناسبة لقياسه ومن تلك التي لا تدل على سن صاحبها. أخجل من الاعتراف بأنني فكرت مباشرة في أنه لم يكن الشخص المنشود، لم أتصور أبدا أن هذا الرجل هو نفسه المعالج العظيم الذي تجاوزت سمعته البحار. فإما إن موهبته توازي غياب فطنته حتى أنه ليقبل أن يدفع له الوزير الياباني الأول فولا سودانيا بقيمة أجرته أو أنه عبقري في "الماركيتنغ"، يستقطب حرفاء سذجا من الغرب، متحمسين للكليشيهات، مثل كليشيه معالج روحاني يعيش في زهد خال من التعلق بالأشياء المادية، لكنه يقبل في نهاية حصة المعالجة أن يجزل له العطاء.

حياني واستقبلني بتلقائية، خاطبني بكل لطف بإنجليزية سليمة تماما. كان هناك بريق في عينيه تناقض مع التجاعيد التي غضنت بشرته. كان هناك عيب صغير في أذنه اليمنى، بدت وكأن شحمة أذنه كانت مقطوعة.

دعاني لأن أتبعه إلى الحجرة الأولى: كانت هناك أربع أعمدة صغيرة تسند سقفها، كان هنالك رف، يستند إلى حائط قديم ويمتد على طوله، فيما وضع فوقه صندوق من خشب الكافور، وعلى الأرض هناك حصيرة. كان الصندوق المفتوح ممتلئا بالوثائق، من بينها لوحات تبرز تجسيما لما يوجد داخل الجسم البشري كانت الرسوم بعيدة كل البعد عن التجسيم الطبي الحقيقي لدرجة كانت لتجعلني أموت ضحكا لو كنت في وضع غير هذا.

نزعت حذائي قبل أن أدخل، أخذا بالعادات البالينية. سألني العجوز مما كنت أشكو، أحالني ذلك فجأة إلى السبب الذي دفعني للقدوم إلى هنا. ماذا أريد بالضبط إن لم أكن مريضا؟ كنت لأضيع وقت الرجل الذي بدأت أستشعر أمانته، حتى لا أقول استقامته، مع أنني لا زلت لا أملك دليلا على كفاءته. هل كان كل ما رغبت به هو أن يلتفت لي شخص ما، يكترث لي، يحدثني عن دواخلي، ويستطيع أن يكتشف طريقة تمكنني من أن أكون أفضل حالا؟ لم أقم سوى بإتباع حدس ما، في النهاية، قالوا لي أنه رجل عظيم، ورغبت في مقابلته فقط.

- قدمت لإجراء فحص، قلت له واحمر وجهي عند تفكيري بأنني لم أذهب لموعد المعاينة السنوية وأن ما طلبته للتو كان في غير محله.

-استلقي هناك، قال لي وأشار إلى الحصيرة دون أن يبدي ردا على تفاهة طلبي.

2

وهكذا بدأت أول، وعلى ما آمل، آخر حصة تعذيب عرفتها في حياتي. بدأ كل شيء بشكل طبيعي: كنت مستلقيا على ظهري، في استرخاء، واثقا ومستمتعا نوعا ما، تركته يجس بلطف أجزاء مختلفة من جسمي، في البدء رأسي، ثم رقبتي. ذراعاي بأكملهما وصولا إلى أطراف أصابعي. تتبع أماكن مختلفة على صدري دقيقة جدا على ما يبدو، ومن ثم بطني، أحسست بالراحة عندما أدركت أن انتقل مباشرة من بطني إلى أعلى فخذي. ركبتاي، ربلتا ساقي، كعبا قدمي، باطنهما: كان يجس كل شيء، لم يزعجني هذا إطلاقا.

أخيرا، وصل إلى أصابع قدمي.

3

لم أكن أعرف أنه بالإمكان جعل شخص ما يتألم لهذه الدرجة فقط بإمساك إصبع قدمه الصغير الأيسر بالإبهام والسبابة. صرخت وتلويت في كل الاتجاهات فوق حصيرتي. يبدو الأمر عن بعد وكأنك ترى صيادا يحاول أن يثبت في خطاف صنارته دودة تبلغ من الطول مائة وثمانين سنتيمترا. أدرك أنني صبور بطبعي، لكن ما أحسسته فاق في شدته كل ما شعرت به إلى حد الآن.

-لست بخير، قال لي.

دون مزاح. همست "نعم" وسط تنهيدتين. لم تعد لدي القدرة على الصراخ حتى. لم يبدو عليه التأثر لمعاناتي، ظل محافظا على نوع من اللامبالاة المرحبة. بل أن وجهه كان يعكس طيبة تتناقض والعلاج المنزل بي.

-أنت شخص تعيس، قال، وكأنه يضع تشخيصا.

في تلك اللحظة تحديدا، نعم، كثيرا. لم أعرف هل كان على أن أبكي أو أن أضحك في تلك الحالة التي كنت عليها. أظن أنني كنت أقوم بكليهما معا. لم أحض بقرين لي أبدا كي أكشف عن خطط مماثلة. وأن أقول إنه كان بإمكاني قضاء يومي على الشاطئ، وأن أتناقش مع الصيادين وأراقب البالينيات الحسناوات.

- الألم الذي تحس به في هذه النقطة بالذات يدل على تعاسة عميقة. إذا ضغطت بنفس الشدة في نفس المكان عند شخص آخر، فلن يشعر بالألم، قال مؤكدا.

وهكذا، ترك قدمي أخيرا، وشعرت فجأة بأنني أسعد رجل على الإطلاق.

-ماذا تعمل ؟

- أنا معلم.

تأملني لوهلة، ثم ابتعد، بوجه مفكر، أو مهموم. أحسست وكأنني قلت شيئا لم يكن علي قوله، أو كأنني ارتكبت حماقة ما. نظر بشرود في اتجاه شجرة "بتغفيلي" مزهرة، على بعد خطوات منا. بدا وكأن أفكاره قد ابتلعته. ماذا كان على أن أفعل؟ أذهب؟ أسعل كي أذكره بوجودي؟ أخرجني من أفكاري وقد عاد ناحيتي. جلس على الأرض بقربي وخاطبني مثبتا عينيه في عيني.

- ما الذي لا يجري على ما يرام في حياتك؟ تتمتع بصحة جيدة للغاية. إذا، ما هو؟ العمل؟ الحب؟ عائلتك؟

كان سؤاله مباشرا، عيناه مثبتتان فوقي، لم يترك لي مجالا للهرب، مع أن صوته ونظراته كانت مرحبة. شعرت بأنني مجبر على الإجابة، أن أفصح عن نفسي لرجل لم أكن أعرفه منذ ساعة خلت.

- لا أعرف، نعم، يمكن أن أكون أكثر سعادة، مثل الآخرين.

- طلبت منك أن تجيب عن نفسك لا عن الآخرين، رد بهدوء.

بدأ يثير سخطي، هذا الرجل. أستطيع أن أفعل كل ما أريد وهذا لا يهمه إطلاقا، فكرت، أحسست ببداية نوبة غضب.

- لنقل أنني لصرت أكثر سعادة إذا كنت مرتبطا.

لماذا قلت له هذا؟ أحسست بالغضب تجاه نفسي. لا أستطيع أن أعارض طلب أحد. هذا مؤسف.

- في هذه الحالة، لماذا لست مرتبطا؟

حسن، الآن، يجب أن أقرر، مع أن هذا ليس من عادتي: إما أن أقاطعه وأغادر، أو ألعب لعبته إلى النهاية.

سمعت نفسي أجيبه:

- أود ذلك بشدة، لكن يجب أن تعجب بي امرأة ما.

-و ما الذي يمنع هذا؟

- أوه، في الواقع، أنا نحيف جدا، أردفت وقد اشتعل وجهي حمرة وغضبا.

4

ترك الكلمات تنساب، ببطء وبصوت خافت، قال لي:

- مشكلتك ليست في جسمك إنما في ذهنك.

- لا، ليست في ذهني: هذه حقيقة، واقع! يكفي أن تعرف وزني، أو أن تقيس محيط صدري، أو عضلات ذراعي. سوف ترى بنفسك. وليس للميزان وشريط القياس دخل في ذلك. لا أستطيع أن أؤثر فيهما بذهني المختل والمتعصب.

- ليس هذا هو المهم، أجابني بصبر، محافظا على هدوئه الكبير.

- سهل أن تقول هذا.

- مشكلتك ليست في شكلك الخارجي، لكن في طريقة تصورك لنظرة النساء نحوه. في الحقيقة، مقدار النجاح الذي نحرزه في التقرب من الجنس الآخر لا علاقة له بالشكل الخارجي.

- لو رددت هذا الكلام لجارتي التي تزن 120 كيلوغراما والتي يشبه أنفها حبة بطاطا، سوف تقوم بسحق الهامبرغر الكبير الثلاثي، الذي يكون معها دائما، على وجهي، وسوف تضغط عليه حتى يصعد الكاتشب إلى خياشيمي.

- ألم تر من قبل شخصا ذو ملامح غير مطابقة للمقاييس المعتادة للجمال ويكون مرتبطا بشخص رائع المظهر؟

- نعم، بالتأكيد.

-معظم الأشخاص الذين يعانون من مشكلتك تكون ملامحهم غالبا عادية، مع بعض العيوب الصغيرة التي يركزون عليها. شفاه رفيعة للغاية، أذنان طويلتان، أرداف مكتنزة قليلا، ذقن مزدوج خفيف، أنف كبير جدا أو قصير جدا. يجدون أنفسهم ضئيلي أو كبيري الحجم، بدينين جدا أو مفرطين في النحافة، ويقنعون أنفسهم بهذا. عندما يلتقون بشخص من الممكن أن يقعوا في حبه، تصير هذه العيوب هاجسا يؤرقهم. لهذا يقتنعون بأنهم لن يروقوا له أبدا. أوهل تعرف؟

- ماذا؟

- هم محقون! عندما نرى أنفسنا بشعين فإن الآخرين أيضا يروننا هكذا. أراهن على أن النساء يجدنك نحيفا للغاية.

-أ وه...

-الآخرون يروننا كما نرى نحن أنفسنا. من هي الممثلة المفضلة لديك؟

- نيكول كيدمان.

-كيف تجدها؟

- ممثلة ممتازة، من أفضل الممثلات في جيلها. أحبها.

- لا، قصدت شكلها.

- مذهلة، عظيمة، إنها قنبلة.

- أنا متأكد من أنك شاهدت "آيز وايد شات (eyes wide shut) "لـ "ستانلي كوبريك"؟

- هل تشاهد الأفلام الأمريكية؟ هل تملك جهاز استقبال في هذه الحجرات؟

- إن كانت ذاكرتي سليمة، هناك مشهد نرى فيه نيكول كيدمان عارية تماما، صحبة توم كروز.

- ذاكرتك جيدة.

-اذهب إلى نادي الفيديو الذي ب-"كوتا"، وشاهد "آيز وايد شوت". هناك كابينات للأشخاص الذين لا يملكون أجهزة عرض فيديو. عندما تصل إلى هذا المشهد، أوقف الصورة وتأملها مليا.

- هذا لا يتطلب جهدا كبيرا.

- عليك أن تنسى للحظات أنها نيكول كيدمان، تخيل أنها امرأة مجهولة، وتأمل جسدها بشكل موضوعي.

- نعم.

- سوف ترى بنفسك أنها جيدة، لديها جسم مقبول، لكنه ليس مثاليا. مؤخرتها جميلة، لكن كان بالإمكان أن تكون ممتلئة أكثر، منحوتة بشكل أفضل. ثدياها ليسا سيئين، لكنهما كانا ليصبحا أجمل لو كان حجمهما أكبر

أو شكلهما أفضل ومشدودان أكثر. سوف ترى أيضا أن ملامح وجهها منتظمة، رقيقة، لكن لا تعبر عن جمال غير اعتيادي.

-ماذا تريد أن تقول؟

-هناك آلاف من النساء أجمل من نيكول كيدمان. تراهن كل يوم في الشارع لكنك لا تنتبه لهن. قوتها الحقيقية تكمن في شيء آخر.

-أجل؟

-نيكول كيدمان مقتنعة تماما بأنها مذهلة. يجب أن تقنع نفسها بأن كل الرجال يرغبون بها، وأن كل النساء يعجبن بها أو يغرن منها. غالبا هي ترى نفسها واحدة من أجمل النساء في العالم. تؤمن بهذا بشدة حتى أن الجميع يرونها هكذا.

-سنة 2006، انتخبتها مجلة "إيف" البريطانية واحدة من أجمل خمس نساء في العالم.

-بالضبط.

-وكيف تفسر هذا؟

-أن الآخرين يروننا كما نرى نحن أنفسنا؟

-نعم.

-سوف تقوم بتجربة. سوف تقوم بتخيل شيء ما للحظات. أي شيء إن كان صحيحا أم خاطئا. فقط أقنع نفسك بأنه صحيح. هل أنت جاهز؟

-هنا، الآن؟

-أجل، الآن. تستطيع إغماض عينيك إن كان هذا يريحك أكثر.

-حسن، أنا جاهز.

-تخيل أنك ترى نفسك وسيما للغاية. أنت مقتنع بأن لك تأثيرا قويا على النساء. تتمشى على الشاطئ، شاطئ "كوتا"، وسط الأستراليات المستمتعات بالإجازة. كيف تشعر؟

-جيد جدا، هذه سعادة حقيقة.

-صف لي مشيتك، وقفتك. أذكرك بأنك تجد نفسك وسيما جدا.

-أمشي. كيف سأعبر عن ذلك.. واثقا نوعا ما، لكن باسترخاء أيضا.

-صف لي وجهك.

-رأسي شامخ، أنظر أمامي، ترتسم على شفتي ابتسامة خفيفة. أنا "كوول" وواثق من نفسي في نفس الوقت.

-جيد. تخيل كيف أن النساء ينظرن إليك.

-نعم، من الواضح أنه لدي نوع من التأثير.

-ما رأيهن في شكل عضلات ذراعيك وصدرك؟

-آه. إنهن لا يأبهن لهذا في الواقع.

-تستطيع أن تفتح عينيك، ما بداخلك هو ما يثير إعجاب النساء، فقط. وهذا ينبع مباشرة من الصورة التي ترسمها لنفسك. عندما نقتنع بفكرة ما عن

أنفسنا، جيدة كانت أم سيئة، نبدأ في التصرف بطريقة تعبر عن هذه الفكرة. نريها للآخرين باستمرار، وحتى إن كانت فكرة موجودة فقط بداخلنا، فهي تتحول إلى حقيقة يراها الآخرون، ثم نحن.

-هذا ممكن. أرى هذا بشكل ما مع أن الموضوع لا يزال مبهما قليلا.

-سوف تتوضح الأمور شيئا فشيئا، أريدك أن تكتشف، من خلال أمثلة مختلفة، أن كل شيء تعيشه تقريبا نابع مما تفكر به.

بدأت أسأل نفسي في أي موقف وضعت نفسي. لم أظن حينها أن محادثتنا والأقوال التي تبادلناها سوف تبعثر كل كياني.

-تخيل الآن، واصل قائلا، أنك شخص ممل، يضجر الآخرون من صحبته.

-أفضل اللعبة السابقة.

-لن يستغرق هذا سوى دقيقتين. تخيل، أن يضجر الآخرون منك هو أمر واقع بالنسبة لك. حاول أن تشعر بما يمكن أن يخلفه الاقتناع بذلك. هل تستطيع فعل هذا؟

-نعم، هذا مثير للشفقة.

-ابق في هذه الوضعية، حافظ على هذه الفكرة، والآن تخيل أنك تتناول الطعام مع زملاء عمل وأصدقاء لك. صف لي كيف تمر الوجبة.

-زملائي يتحدثون كثيرا، يتحدثون عن إجازاتهم، لا أقول الكثير.

-ابق في هذه الحالة، لكن الآن سوف تقوم بجهد وتحاول أن تخبرهم عن حادثة صادفتها في إجازتك.

-أترك لي قليلا من الوقت. إني أتخيل المشهد.. حسن ليس لهذا تأثير كبير. لا أحد يستمع إلى فعلا.

-هذا طبيعي: بما أنك مقتنع بأنك لست ممتعا، سوف تتكلم بطريقة تجعل خطابك غير مشوق.

-نعم.

-مثلا، بما أنه لديك قلق غريزي من أن تضجر رفاقك، بدون أن تشعر سوف تتحدث بطريقة سخيفة، تجعل مداخلاتك موجزة، كي لا تهدر وقتهم ولا تزعجهم. وهكذا لن يكون لك أي تأثير، والحادثة التي أردت التحدث عنها تصبح تافهة. تحس بذلك وتقول لنفسك: "أنا فاشل في رواية القصص" وفي النتيجة سوف تصبح سيئا أكثر فأكثر، وفورا أحد رفاقك سوف يواصل الحديث وينتقل إلى موضوع آخر. في نهاية الوجبة سوف ينسى الجميع أنك تكلمت.

-هذا سيء.

-عندما نقتنع بشيء ما، يصبح واقعا، واقعنا.

أقلقني هذا التفسير جدا.

-أوه، حسن، لكن كيف يمكن للمرء أن يقنع نفسه بهذا؟

-هذه ليست مشكلتك بدون شك، لكنها مشكلة البعض. كل شخص يفكر في نفسه بطريقة خاصة به. كان هذا مثالا وحسب. كي نظل في نفس السياق، تخيل العكس الآن تخيل أنك تمتع الآخرين، أنك تؤثر عليهم بشكل كبير عندما تتحدث. عندما تتناول الطعام مع رفاقك تخيل أن مداخلتك ستسحرهم: سوف تقوم بإضحاكهم، تفاجئهم، أو فقط تستحوذ على انتباههم. عليك أن تقتنع بهذه الفكرة، تخيل الآن الطريقة التي ستتحدث بها: تصل للدرجة المرجوة من التأثير، تأخذ الوقت الذي تحتاجه للكلام، لتعديل صوتك. تسمح لنفسك بلحظات صمت في الوقت المناسب كي ترفع درجة التشويق. هل تعرف؟ ستتعلق نظراتهم بشفاهك.

-حسن، أفهم أن ما نؤمن به يتحول إلى حقيقة، لكن لدي سؤال.

-نعم؟

-كيف نستطيع أن نقتنع بأشياء عن أنفسنا، إيجابية كانت أم سلبية؟

-هناك عدة تفسيرات. في البداية، هناك أشياء يقوم الآخرون بتأكيدها لنا. إذا كنا نثق بهم لسبب أو لآخر، نستطيع حينها أن نصدق ما يقولونه لنا.

-الوالدان، مثلا؟

-بالطبع هذا يبدأ مع الوالدين أو الأشخاص اللذين رعونا. الطفل الصغير يتعلم الكثير من والديه، وعلى الأقل، يظل إلى سن معينة يتقبل كل ما يقولانه له. ينحفر فيه هذا الأمر ويتقبله.

-هل لديك مثال على هذا؟

-إذا كان الوالدان مقتنعين بأن ابنهما رائع وذكي، ويكرران قول هذا له دون توقف سيكون من الممكن أن يرى الطفل نفسه هكذا ويصبح واثقا من نفسه. مع ذلك لن يكون لهذا آثار جيدة فقط. يمكن أيضا أن يصبح متغطرسا.

-إذا فهي غلطة والدي أن تكون لدي هذه الشكوك تجاه مظهري؟

-لا، ليس بالضرورة. سوف ترى أن هناك أسباب متعددة لما نظنه بأنفسنا. وفيما يتعلق بتأثير الآخر، ليس للأمر علاقة بالأهل فقط. مثلا رأي المدرسين فينا له تأثير كبير أحيانا، إيجابيا وسلبيا.

-أتذكر شيئا ما: كنت جيدا في الرياضيات في المدرسة إلى غاية الصف الخامس. كنت أحصل فيها على 18 درجة من عشرين. لما انتقلت للصف الرابع، كانت معلمتنا تردد على أسماعنا أننا فاشلون في كل حصة، أتذكر جيدا، كانت تصرخ دون انقطاع، وكنا نرى الأوردة التي في عنقها وقد انتفخت عندما كانت تصرخ في وجوهنا. بحلول نهاية السنة تحصلت على 4 درجات.

-لا بد أنك صدقت ما كانت تقوله.

-ربما. لكن، لأكون صادقا، رفاقي لم يحصلوا على 4 درجات مثلي..

-كانوا أقل تحسسا منك بدون شك تجاه رأي المعلمة.

-لا أدري.

-هناك تجربة أجريت خلال السبعينات، من قبل باحثين في جامعة أمريكية. بدأوا بتجميع مجموعة تلاميذ من نفس السن متحصلين على نفس معدل الذكاء iQ..إذن كان لهؤلاء الأطفال نفس مستوى الذكاء حسب هذا الاختبار. ثم

قاموا بتقسيم هذه المجموعة إلى قسمين. أحالوا القسم الأول إلى مدرس وقالوا له: درسهم المنهج المعتاد، لكن لمعلوماتك، يستحسن أن تعرف أن هؤلاء التلاميذ يمتلكون معدل ذكاء أعلى من المعدل المعتاد. بينما قيل للمدرس الذي سيرعى القسم الثاني: درسهم المنهج المعتاد لكن يجب أن تعلم أن هؤلاء التلاميذ يمتلكون معدل ذكاء أقل من المعدل المعتاد. بعد مضي سنة من الدراسة، أخضع الباحثون الأطفال لاختبار معدل الذكاء مرة أخرى. تحصل تلاميذ القسم الأول على معدل ذكاء أعلى من تلاميذ القسم الثاني.

-هذا غريب.

-هذا في الواقع، يثير الإعجاب.

-مذهل! يكفي أن نجعل المدرس يؤمن بأن تلامذته أذكياء حتى يزيد من مستوى ذكائهم، إذا اقتنع بأنهم أغبياء فهل سيزيد من درجة غبائهم؟

-هذه تجربة علمية.

-مع ذلك، إنهم مهووسون بإجراء التجارب على الأطفال.

-هناك الكثير من الجدال بخصوص هذا.

-لكن، يعني، هل من الممكن أن يحصل هذا؟ أقصد، كيف يمكن لإيمان المدرس بأن تلامذته أغبياء أن يجعلهم هكذا فعلا؟

-هناك تفسيران محتملان: أولا، عندا تتوجه بالحديث إلى شخص بليد الذهن، كيف ستتحدث معه؟

-كلمات سهلة، جمل قصيرة، أفكار بسيطة.

-بالضبط. وعندما تتحدث مع أطفال أذهانهم بحاجة إلى أن يتم تحفيزها كي تتطور، سوف تركد عوض أن تتوقد أكثر. هذا هو التفسير الأول. هناك آخر وهو أكثر دقة.

-أجل؟

-لو توجب عليك أن تعتني بطفل تعتقد بأنه غبي، إذن كل شيء فيك سينبئه على الدوام بأنه كذلك: ليست الكلمات التي ستعتمدها فحسب، مثلما سبق وقلنا، لكن أيضا الطريقة التي ستتحدث بها، حركات وجهك، نظراتك: تأخذك الشفقة به قليلا، أو على العكس، ستكون منزعجا، وسوف ينتبه لهذا: سيحس نفسه غبيا في حضورك. ولو كنت شخصا مهما بالنسبة له، موقعك، سنك، دورك يجعلونك ذا قيمة في عينيه، إذن هناك احتمال كبير ألا يشك في هذا الأمر. سوف يبدأ في الاعتقاد بأنه غبي. وتعرف بقية ما سيحصل.

-هذا مرعب.

-هذا يثير الشك، في الواقع.

كنت قلقا مما أدركته للتو. كل هذه الأفكار ظلت معلقة في الهواء. بقينا صامتين للحظات. حملت لي رياح خفيفة العطر النفاذ للنباتات الاستوائية التي تنبت بحرية بالقرب من الحجرات. كنا نسمع صوت السحلية المميز عن بعد.

-هناك شيء أثار استغرابي.

-أجل؟

-لا أريد أن أزعجك، لكن كيف تستطيع الحصول على معلومات مماثلة، أقصد التجارب العلمية التي تجرى في الولايات المتحدة الأمريكية؟

-عليك أن تقبل بأن أحتفظ بالغموض لنفسي.

لم أكن لألح، لكنني وددت لو أعرف. لم أستوعب وجود شبكة إنترنت في مكان مماثل. لم أكن متأكدا حتى من ارتباط البلدة بشبكة هاتف. وبالأخص، لم أستطع أن أتصور معالجي وهو يتفحص صفحات علمية. أفضل أن أراه منهمكا في التأمل لساعات في وضعية اللوتس، تحت ظلال شجر القلنباق.

-قلت أنه توجد أسباب أخرى كي يصدق المرء أشياء عن نفسه؟

-نعم، هناك الخلاصات التي نستنتجها من تجارب عشناها.

-أود لو تعطيني مثالا.

-حسن، مثلا رسم كاريكاتيري كي يكون التخيل أفضل، تخيل رضيعا أبواه لا يكترثان لما يقوم به. يبكي؟ أبواه لا يهتمان. يصرخ؟ يصمتان. يضحك؟ لا وجود لأي رد فعل. نستطيع أن نفترض بأن إحساسه بعدم تأثيره على المحيط سوف ينمو، بأنه لا يستطيع الحصول على أي شيء من الآخرين. لن يقول ذلك بطريقة مباشرة طبعا، خصوصا في سنه هذه. هذا مجرد إحساس، شعور يتشربه. الآن، كي نبسط العملية إلى أقصى درجة، سنفترض أنه لن يعايش تجارب ذات نتائجه معاكسة، نستطيع أن نتخيل الآن وقد صار راشدا، سيصبح هذا أمرا مقضيا بالنسبة له، لن يقترب أبدا من الآخرين ويأخذ ما يريد، لن يعمل أبدا على تغيير الأشياء. إذا وجده أحد أصدقائه يوما ما في مأزق، مثلا

في العمل، لن يرى سوى سلبيته. سوف يحاول مع ذلك أن يدفعه ليتحرك، ليطرق كل الأبواب، ليسيطر على الأزمة، ليتصل بأشخاص آخرين، لن يفعل أي من هذا. صديقه هذا على الأغلب سوف يسأم منه، في حين أن تصرفاته تنبع من اعتقاده الراسخ بأنه لا يستطيع أن يؤثر في محيطه ولا يستطيع الحصول على شيء من الآخرين. لن يكون واعيا حتى للطريقة التي يفكر بها. بالنسبة له، هكذا هي الأمور، هكذا هو الواقع، هكذا هو واقعه.

-طمئني: لا وجود لوالدين من هذا النوع؟

-هذا مثال فقط. في الواقع، نستطيع تخيل العكس: أبوان مهتمان بكل ما يصدر عن طفلهما. إذا بكى يركضان نحوه، إذا ابتسم يبتهجان، إذا ضحك يصبحان سعيدين. سوف يطور الطفل إحساسه بالتأثير في محيطه، وكي نختصر القصة، سوف نتخيل أنه صار شخصا راشدا كثير النشاط، أو حتى جذابا، ويكون مقتنعا بقوة تأثيره في الآخرين ولن يتردد أبدا في استعماله للحصول على ما يريده. لكن لن يكون واعيا هنا أيضا لإيمانه بهذه الفكرة. بالنسبة له هذا أمر بديهي: لديه تأثير على الآخرين. هكذا. لا يعرف أن السبب وراء هذا هو فكرة تأصلت لديه عندما كان طفلا.

دخلت المرأة الشابة التي استقبلتني إلى الحجرة وقدمت لنا شايا وفطائر، إن جازت تسمية هذا النوع من العجين الرطب السكري واللزج، يجب أكله بالأصابع إذا ما أردنا احترام التقاليد البالينية. هناك مثل بالياني يقول إن استعمال أدوات المائدة للأكل يشبه ممارسة الحب عن طريق مترجم. من

المفترض أن نأخذ الطعام في راحة يدنا، ثم ندفعها داخل الفم بالاستعانة بالإبهام. عليك أن تتدرب قليلا حتى لا تجد نفسك مثل رضيع دون مريلته.

-إذن، نبدأ في الإيمان بأشياء محددة عن أنفسنا من خلال ما يكرره الآخرون لنا أو ما نستنتجه بطريقة غير مباشرة من التجارب التي نخوضها. صحيح؟

-أجل.

-فقط خلال مرحلة الطفولة؟

-لا، لكن لنقل أن معظم اعتقاداتنا تتجذر خلال الطفولة، لكن هذا لا يمنع إمكانية تطويرها لاحقا، حتى في سن الرشد. لكن، في هذه الحالة، سوف تكون ناتجة عن تجارب ذات تأثير كبير على المستوى العاطفي.

-مثلا؟

-تخيل أنه، خلال المرة الأولى التي تلقي فيها خطابا على الملأ، لا تستطيع تمالك نفسك. تتلعثم، تبحث عن الكلمات، صوتك يختفي إلى داخل حنجرتك، فمك جاف وكأنك أمضيت ثلاث أيام كاملة دون نقطة ماء وسط الصحراء. في القاعة، صوت طنين الذباب فقط الذي يسمع. ترى الجميع وقد أشفقوا عليك. بعضهم يبتسمون بسخرية. ترغب في إعطاء جميع مدخراتك وعائداتك المالية للسنة القادمة، فقط كي تكون في مكان آخر ولا تعايش هذا الموقف. تحس بالخجل، مرارا وتكرارا. في هذه الحالة، سوف تستنتج أنك لست مؤهلا لإلقاء الخطابات على الملأ. في الحقيقة، أنت فشلت مرة واحدة، في ذلك

اليوم، أمام ذلك الجمهور، حول موضوع معين. لكن ذهنك قام بتعميم الحدث مستخرجا منه نتيجة نهائية.

أنهيت تناول فطائري، صارت أصابعي الآن تلتصق ببعضها. احترت بين لعقها ومسحها على الحصيرة. لم أستطع أن أقرر فبقيت أصابعي معلقة في الهواء. كنت على الأغلب أنمي فكرة أنني لم أخلق لآكل على الطريقة البالينية.

-عندما تعود في الغد، سوف نكتشف معا أشياء أخرى تعيقك عن أن تكون سعيدا، قال لي بلطف.

-لم أكن أعرف أنني سأعود في الغد.

-لم تجعلني أعتقد أن مشكلتك تنحصر في شكوكك حول مظهرك. أنا متأكد من وجود مشاكل أكثر خطورة، وسوف نتحدث حولها معا.

-أنت صعب.

-لا نستطيع مساعدة الآخرين على التقدم بقول ما يريدون سماعه، أجاب مبتسما.

-هل تعرف، ظننتك معالجا، تهتم فقط بالأمراض والآلام.

-في الغرب، اعتدتم على الفصل بين الجسد والذهن. هنا نعتقد أنهما مرتبطان ببعض بشدة ويكونان عنصرا واحدا. سوف نجد فرصة أخرى للحديث حول هذا.

-سؤال أخير. لا أجد راحة في الحديث عن هذا حتى عندما تكون الأشياء واضحة، بكم أدين لك مقابل مساعدتك ووقتك الذي تسخره لي؟

تأملني بانتباه، ثم قال لي:

-أعلم أن مهنتك تجعلك تقوم بإيصال معلومات للآخرين. يكفيني ألا تحتفظ بنفسك لما سوف تكتشفه.

-هذا وعد.

رغم ذلك عندما حان وقت مغادرتي، وضعت ورقة نقدية في العلبة الموضوعة على الرف.

-هذا من أجل المداخلة التي أجريتها على أصابع قدمي.

5

الطريق المؤدية إلى "أبود" جميلة بشكل خاص. لم ألحظ هذا في رحلة الذهاب، كنت منشغلا بالعثور على طريقي. كانت كثيرة المنحنيات، تمر عبر حقول مليئة بأشجار الموز البرية تمر عبرها بضع جداول ماء. تخضع هذه الجهة المغطاة بالتلال الواقعة وسط الجزيرة لنوبات من الشمس والأمطار، أمطار ساخنة مضمخة بروائح الطبيعة. هذا المناخ ملائم تماما لانفجار زراعة استوائية فاخرة .

في انعطافة منحدر الطريق، رأيت ثلاثة رجال باليين على حافة الحقل، يبعدون أمتارا قليلا عن الطريق. أعمارهم تتراوح بين العشرين والثلاثين، أجسامهم رشيقة، وعارية بالكامل. استغربت بشدة لظهورهم المفاجئ. لم أكن على علم بغياب الحشمة عن الثقافة البالينية. هل كانوا يستحمون بعد يوم من العمل المضني في الحقول؟ كانوا يتحركون بهدوء يمشون جنبا إلى جنب. التقت نظراتنا عندما وصلت إلى المستوى الذي كانوا يمشون فيه. لم أنجح في تفسير التعبير الغريب الذي قرأته. هل ارتبكوا لرؤيتي في هذه الطريق غير الآهلة؟ هل لاحظوا دهشتي أمام عريهم؟

تتواصل طريقي وعند الاقتراب من "آبود" تمر عبر قرى صغيرة. المساكن توحي بالفقر، لكن مع ذلك الطرق كانت دائما أنيقة، نظيفة ومزهرة. أمام كل باب، هناك دائما قرابين موضوعة على الأرض، مكونة من الأزهار أو من بعض الأطباق التي جمعت فوق قطع من أوراق أشجار الموز المضفورة. كانت هذه القرابين تجدد باستمرار طوال اليوم.

التباينيون يعيشون في جو من القدسية. لا ترتكز ديانتهم على ممارسات مقيدة بساعة محددة، أو بأيام من الأسبوع. لا، هم في تواصل مباشر مع الآلهة. يبدون مشبعين بإيمانهم، مسكونين به على الدوام. هم دائما هادئون، طيبون، مبتسمون، هم دون شك، بالإضافة إلى سكان جزر الموريس، الشعب الأكثر لطفا على وجه الأرض. مزاجهم دائما مستقر، يبدون وكأنه لا شيء بإمكانه أن يزعجهم. يستقبلون بنفس السكينة كل ما يحصل لهم.

بالي تشعر كل زوارها بأنهم في الجنة، والأوكد أنهم سيستغربون لمعرفتهم أن هذه الكلمة غير موجودة في اللغة البالينية. الجنة هي العنصر الطبيعي لدى البالينيين، والكلمات التي لديهم والتي يمكن أن تصف الجنة أقل بكثير من الكلمات التي تصف بها الأسماك المياه المحيطة بها.

فكرت مجددا في لقائي مع المعالج، لازلت مسحورا بالحوار الذي أجريناه، هناك هالة مميزة تحيط بهذا الرجل، لديه طاقة تنبع بطريقة طبيعية من داخله. كنت متحمسا لما جعلني أكتشفه، مع أن هذه الأمور قامت بإذهالي في بعض الأحيان. لم أتخيل أبدا أني سأجد نفسي في الطرف الآخر للعالم، أستمع إلى عجوز بالينى حكيم يعلق على ثديي ومؤخرة "نيكول كيدمان".

لدى خروجي من "آبود"، استدرت شرقا كي أعود إلى منزلي. كان اليوم مفعما بالمشاعر ورغبت في تقضية بعض الوقت وحيدا كي أتأمل كل ما اكتشفته. أحتاج أقل من ساعة كي أصل إلى قرية الصيادين الصغيرة أين بجانبها استأجرت كوخا من القش على حافة شاطئ بري جميل ذي رمال رمادية. لسعادتي، يفضل السائحون الشواطئ ذات الرمال البيضاء جنوب الجزيرة، حتى أنني كنت قليلا ما أصادف سواحا على "شاطئي". هناك فقط ثنائي هولندي استأجر مكانا غير بعيد عني. لم يكونا سيئين، لم أصادفهما إلا نادرا. كوخي ملك لعائلة تسكن في الأراضي البعيدة. استأجرته لمدة شهر بسعر جد مناسب بالنسبة لي، مغر بالنسبة لهم: أحب الوضعيات التي يكون فيها الجميع رابحين. يظل الشاطئ فارغا طيلة فترة الصباح، وبعد الظهر يأتي بضع أطفال من القرية للعب. فقط الصيادون كانوا يمرون من هناك، أسمعهم أحيانا ينزلون للمياه في قواربهم في الخامسة صباحا. رافقتهم مرة، على الرغم من أنه كان صعبا أن أفهمهم طلبي وأحصل على موافقتهم نظرا لأنني لا أتكلم البالينية.

ظل هذا أحد أفضل ذكرياتي في بالي. غادرنا قبل شروق الشمس، ولم أكن أشعر بالأمان في القارب المهتز، جالسا بالقرب من المياه، لا أرى شيئا تقريبا في ظلام ليلة دون قمر. لكن الصيادين كانوا على دراية جيدة بمهنتهم، اختبرت يومها الإحساس بالثقة، ثقة عمياء في الظروف. هدير المياه والنسائم النقية التي لفحت وجهي كانت العناصر الوحيدة التي تمكنت من إدراكها بواسطة حواسي المستيقظة للتو. بعد ثلاثة أرباع الساعة، رأيت الشمس تبرز ببطء من جهة الأفق، مثل كشاف ضوئي ينير بقعة فوق السطح، بضربة واحدة يوجد ديكورا عظيما، ساحرا. اكتشفت في مرة واحدة لانهاية البحر، عظم السماء، وصغر

القارب الذي بدا وكأنه سحر ليطفو فوق هاوية دون قرار، مثل عود كبريت موضوع فوق المحيط. اكتشفت أيضا ابتسامات الصيادين، وشعرت فجأة بسعادة لا أعرف سببها.

في طريق العودة، رأينا بضعة دلافين بالقرب من القارب، أعربت عن رغبتي في الانضمام إليهم ومشاركتهم السباحة بالتفكير الأبله لسائح قادم من الغرب زار عدة حدائق حيوانات. منعني الباليون، أوضحوا لي أن هذه الدلافين التي تسبح بالقرب من السطح قد تكون متبوعة في عمق المياه بأسماك قرش تطارد نفس مجموعة الأسماك. قام هذا التبرير بإقناعي، واكتفيت بتأمل جميلات الطبيعة، حرة في حركاتها، حرة في وجهتها، حرة في حياتها.

توقفت في الطريق لآكل "الناسيغورنج" في أحد المتاجر، طبق تقليدي يتكون أساسا من الأرز، تقريبا مثل كل الأطباق البالينية. بعد مضي أربع أسابيع، مجرد رؤيتي للأرز صارت تفقدني شهيتي. وصلت إلى كوخي عند حلول الظلام، الوقت المثالي للقيام بنزهة على الشاطئ دون مصادفة أحد. تخلصت من حذائي وتوجهت نحو الشاطئ. مثلما هو متوقع، كان الشاطئ خاليا وتجولت طويلا على طول شريط المياه، وبنطالي مرفوع للأعلى.

بسرعة، عاد ذهني السريع التنقل إلى لقائي مع المعلم، وفكرت مجددا في كل ما جعلني أكتشفه. هكذا قام "أنا الآخر" بتطوير معتقدات عن نفسه بسبب تأثير الآخرين في محيطنا أو بسبب خلاصات قمنا باستنتاجها دون أن نعي ذلك من الذي عشناه. وددت أن أعترف بهذا، لكن في هذه الحالة، إلى أي مدى تمتد هذه المعتقدات؟ رأينا أنه نستطيع إقناع أنفسنا بوسامتنا أو ببشاعتنا،

بذكائنا أو بغبائنا، أن كنا مشوقين أو مملين. نستطيع أن نؤمن بقدرتنا على التأثير في غيرنا أو العكس، أن نؤمن بأننا نستطيع الحصول على كل ما نطلبه من الآخرين. في أي مجالات أخرى نستطيع أن نطور هذه المعتقدات؟ فهمت أننا نستطيع الاعتقاد بأشياء محددة وأن هذه المعتقدات سيكون لها تأثير كبير على حياتنا فيما بعد. لكن إلى متى؟ تساءلت كيف أثرت معتقداتي في مجرى حياتي، وفي ماذا، وفقا لصدفوية لقاءاتي وتجاربي، كان بالإمكان أن أقتنع بأشياء أخرى والتي كانت لتعطي وجهة مختلفة لحياتي.

كان لأسئلتي إجابة واحدة حفيف المياه تحت قدمي، تترافق مع الصمت الذي يلف الشاطئ الخالي. أشجار النخيل التي تحيطه كانت جامدة، لا وجود لهبة نسيم واحدة تحرك سعفها الرقيق. اعتدت أن أسبح كل مساء. نزعت بنطالي وقميصي، وانزلقت في مياه البحر الدافئة. سبحت طويلا دون أن أفكر بشيء، تحت الأنظار المرحبة للقمر الوليد.

6

استيقظت بعد نوم عميق بشكل خاص فوجدت أن الشمس توسطت السماء. تناولت بعض الفواكه كفطور صباح متأخر وخرجت لأقوم بنزهة صباحية في الغابة الصغيرة التي تمتد خلف الشاطئ. عندما مررت بالقرب من كوخ "هانز" و"كلوديا"، الثنائي الهولندي، ميزت صوتيهما.

-ألم يجهز الطعام بعد؟ قال "هانز" وهو جالس على صخرة صغيرة واضعا كتابا على ركبتيه.

كان شعره رماديا داكنا، وجهه خال من التعابير، وشفتاه رفيعتان.

-قريبا عزيزي، يكاد يجهز.

كانت "كلوديا" امرأة لطيفة وناعمة، أربعينية، وجهها ممتلئ ومحاط بشعر أشقر مجعد جميل.

كانت منهمكة في طهي أسياخ من السمك فوق مكان مخصص للشوي.

-تقومين باستعمال الكثير من الفحم، إنه لا يجدي نفعا، هذا هدر.

قال هذا دون أن يدرك أنه كان يلومها. بالنسبة له، كان هذا أمرا واقعا، فقط.

-إذا لم أفعل هذا سيتطلب شواؤها وقتا أطول، قالت مبررة.

في المرة الأخيرة التي صادفتهما، كانت "كلوديا" تنظف الكوخ في حين كان "هانز" يقرأ كتابه اللعين. تساءلت ما الذي يدفع امرأة في القرن الواحد والعشرين إلى قبول لعب دور ربة المنزل. "هانز" لم يكون مفتول العضلات بالشكل الذي نتخيله. بالنسبة له، كان أمرا عاديا أن تتولى زوجته كل هذه الأشغال. لم يطرح هذا السؤال نفسه بينهما إطلاقا دون شك. هكذا كانت الأمور بالنسبة لهما.

-مرحبا، "جوليان" يا للسرور برؤيتك! قالت عندما رأتني.

-مرحبا "جوليان"، قال "هانز."

-مرحبا.

-هل تود مشاركتنا تناول السمك؟ اقترحت "كلوديا."

رفع "هانز" حاجبه ببطء.

-لا شكرا، لقد تناولت إفطاري منذ قليل.

-هل استيقظت للتو؟ سأل "هانز". نحن، قمنا بزيارتين هذا الصباح: معبد "تاناه لوو" ومتحف "سوباك" في "تابانان."

-هذا جيد، أهنئكما.

لم ينتبه لنبرة السخرية في جوابي. "هانز" واحد من الأشخاص الذين ينصتون للكلمات، لكنهم لا ينتبهون لنبرة الصوت أو لتعابير وجه المتكلم.

-أشعر أنك لا تزور أماكن عدة هنا، ألا يثير هذا اهتمامك؟

-بلى، لكنني أفضل تفحص الأجواء هنا، أتجول في القرى، أتوق للتحدث مع السكان، أحاول أن أضع نفسي مكانهم و أرى كيف هو الأمر. أحاول أن أفهم حضارتهم، هكذا.

-يفضل "جوليان" اكتشاف الحضارة من الداخل، بينما أنت عزيزي تفضل أن تفهمها من الكتب، قالت "كلوديا."

-أجل، هذا أسرع، ومربح للوقت، قال "هانز" بنبرة انتصار.

أذعنت لكلامه. لم الجدال؟ لدى كل واحد طريقته لفهم الأمور.

-هل ترغب في مرافقتنا هذا المساء؟ سألت "كلوديا". سوف نذهب لمشاهدة عرض لل "gamelons" (فرقة تعزف الموسيقى الشعبية) في "آبود"، وبعدها، عند حلول الليل، سوف نذهب لمشاهدة السلاحف على شاطئ "بومتران". إنه موسم فقس بيوضها. يتواصل هذا لليلة أو ليلتين، تقريبا. بعدها سيكون الأوان قد فات لرؤيتها.

فكرة إمضاء سهرة مع "هانز" لم تحمسني لدرجة كبيرة، لكني كنت رغبت كثيرا في رؤية السلاحف الوليدة. كما أنني شعرت أن قبولي الدعوة سيدخل البهجة إلى قلب "كلوديا" بشكل خاص.

-حسن، لطف منكما أن تدعواني. كنت سأذهب إلى "أبود" بعد الظهر على أي حال، إذن سوف أجتمع بكما بعدها مباشرة. أعطياني العنوان لطفا.

-سيقام هذا في قاعة الحفلات، تعرفها، بالقرب من السوق الكبير. الساعة السابعة مساءا، قالت "كلوديا."

-هل أنت ذاهب لزيارة أروقة العرض؟ سأل "هانز."

كانت "آبود" مدينة الفنانين، تجد فيها أروقة العرض الفنية بوفرة.

-لا، سوف أزور... لنقل... واحدا من المعلمين الروحانيين.

-حقا؟ لماذا؟

كنت أعرف أن سؤاله كان صادقا. "هانز" كان ذلك النوع من البشر الذي يسألك لماذا تذهب إلى السينما، للكنيسة أو للمقبرة، أو حتى لماذا لم تعد ترتدي بنطالا غير مواكب للموضة مع أنه لا يزال في حالة حسنة. حسب رأيه كل ما لا يكون نتاج تخطيط عقلاني ما هو إلا من غرائب الطبيعة.

-إنه يساعدني على فهم بعض الأشياء. وبطريقة ما، يساعدني على إيجاد نفسي.

-إيجاد نفسك؟

-أجل، تقريبا.

-لكن، إن أضعت نفسك، ما الذي يضمن لك أنك ستجدها في "آبود" وليس في "نيويورك" أو "أمستردام"؟

مضحك جدا. هناك فعلا أشخاص متصلبو الرأس فيما يتعلق بالبعد الروحاني للحياة.

-لست تائها. إذا ما فتحت معجما -على الأغلب أن تستمتع بقراءته وتتقبل العاطفة فيه- سوف ترى أن هناك معان كثيرة للفعل "وجد". في هذا السياق، يعني أن تفهم نفسك أكثر كي تصبح حياتك أكثر انسجاما مع شريكك.

-لا تغضب يا "جوليان."

-لست غاضبا، كذبت.

-عزيزي، أترك "جوليان" وشأنه، قالت "كلوديا". قل لي "جوليان"، هل تقوم بالغوص كل يوم؟

-أجل، تقريبا.

-نحن أيضا، قمنا بالغوص في اليوم الأول، قال "هانز". كنا محظوظين: كان الجو رائعا والمياه صافية. خلال ساعة واحدة، تمكنا من رؤية أهم الأشياء التي يمكن رؤيتها.

-شخصيا، أغطس دائما، أستمتع كثيرا بالسباحة وسط الأسماك وبالاقتراب منها. يخف وجلها حتى أنك تستطيع لمسها إذا ما أردت.

انتظرت ليسألني لم قد يقوم بذلك.

الرجل سليل الأسماك. "جوليان" يلتقي بأصوله المفقودة.

-وأنت، تستعد لأكل أحد أجدادك مشويا على الفحم. هذا رائع. حسن، في الواقع، سأترككم لوجبتكم. بالعافية، إلى اللقاء في المساء.

-بحثا موفقا. وبالأخص لا تفقد الأمل، لازال هناك مكتب الأغراض المفقودة في "جاكارتا!"

-إلى اللقاء مساءا. قالت "كلوديا."

واصلت نزهتي وأنا أفكر في "هانز". تساءلت ما مشكلة هذا الرجل. كان غريبا بعض الشيء. أحسست أنه ليس شريرا، لا يريد أن يجرحني. كان فقط متعصبا ضد بعض الأشياء.

عدت إلى كوخي، جهزت نفسي على عجل، ثم قفزت إلى سيارتي. بدت لي الخريطة أسهل هذه المرة، ووصلت أمام منزل المعلم "سامتينغ" عند الظهر.

7

استقبلتني نفس المرأة الشابة بطريقة رائعة وقادتني مباشرة إلى الحجرة التي كنت فيها البارحة. وجدت هذه المرة فرصة لتأمل المكان براحة. كان بسيطا وجميلا في آن. الكثير من السكينة، من السلام ومن الانسجام تنبعث من هذا المكان الذي بدأت بالفعل أحبه. أحسست أن مكانا مثل هذا يدفعك لترك السيطرة على العديد من الأمور. هنا، تترك الكثير من مشاغلك على باب الدخول. توقف الزمن. شعرت أنه بإمكاني البقاء هنا لسنوات دون أن تظهر على وجهي أي تجاعيد.

لم أره قادما. التفت فرأيته واقفا ورائي. حيا أحدنا الآخر، وأعلمني أنه لا يستطيع البقاء معي لوقت طويل الآن. يا للأسف.

-إذن، هل ذهبت إلى نادي الفيديو في "كوتا"؟ سألني.

-أوه. لا، أجبته بقليل من العطف.

قال لي، دون أي أثر للاتهام أو للسلطة في صوته :

-إذا كنت ترغب فعلا أن أرافقك في الطريق التي ستجعلك تتقدم في حياتك، من الضروري أن تقوم بما أطلبه منك ما دمت لم تقم برفضه. إذا

اكتفيت بالمجيء إلى والإنصات إلى ما أقوله، لن يحدث الشيء الكثير. هل أنت جاهز لأن تلتزم بهذا؟

-حسن.

ألدي خيار آخر، بما أنني أرغب في أن تتواصل علاقتنا؟

-قل لي: لماذا لم تذهب إلى "كوتا"؟

-أوه. في الواقع، كنت متعبا ليلة أمس وكنت في حاجة إلى أخذ قسط من الراحة.

قال لي بنبرة مرحبة.

-عندما تكذب على الآخرين فعلى الأقل لا تكذب على نفسك.

-عفوا؟

ارتبكت.

-مما تخاف؟

كان هناك الكثير من النعومة في صوته، وغرقت عيناه في عيني، وصولا إلى أعماق نفسي. ومع ذلك، لم أشعر بأنه يتطفل علي. كل ما شعرت به هو أن شخصا ما يراني. هذا الرجل يقرأ ما بداخلي كأنه يقرأ كتابا.

-..؟

-ماذا كنت ستخسر لو ذهبت؟

ماذا يفعل كي يطرح أسئلته بهذا الشكل، كي يضغط بإصبعه بدقة على المكان المحدد؟

بعد قليل من الصمت، سمعت نفسي أجيبه :

-أظن أنني رغبت أن يظل إعجابي بممثلتي المفضلة سليما.

-كنت خائفا من فقدان أوهامك.

كان هذا غريبا لكنه كان صحيحا. الأكثر غرابة من هذا، هو أنني البارحة شككت في أن يكون معه حق فيما قاله عنها. إذن، لماذا أرفض الحقيقة؟

-ربما، قلت له.

-هذا أمر عادي، من طبيعة البشر أن يتعلقوا بشدة بكل ما يؤمنون به. إنهم لا يبحثون عن الحقيقة، بل ينشدون فقط شكلا من المساواة، يستطيعون محاربة عالم متماسك بأكمله انطلاقا من معتقداتهم. هذا يقوم بطمأنتهم، ويتعلقون به دون أن يعوا ذلك.

-لكن لماذا لا يسلمون بأن ما يعتقدونه ليس حقيقيا؟

-تذكر أن ما نعتقده يتحول إلى حقيقة بالنسبة لنا.

-لست متأكدا من أنني أتابعك بشكل تام، أنت تعرف، هذا فلسفي بعض الشيء بالنسبة لي. مع أنني كنت دائما شخصا حالما، فأنا عقلاني أيضا. بالنسبة لي، الحقيقة هي الحقيقة.

-هذا بسيط جدا في الواقع، إذا طلبت منك أن تغلق عينيك، وأن تصم أذنيك، ثم طلبت منك أن تصف لي بكل دقة الحقيقة الموجودة حولك، لن تستطيع أن تصف كل شيء. هذا طبيعي: هذا الأمر يتطلب مليارات المعلومات، وأنت لم تتمكن من استيعابها كلها، أنت فقط رأيت جزءا من الحقيقة.

-هذا يعني؟

-مثلا، على المستوى البصري، كمية المعلومات المتعلقة بالمكان، هندسة الجدران والأعمدة في مختلف الحجرات التي تبدو في مرمى البصر، الأشجار، الشجيرات والنباتات المتكونة من ملايين الأوراق التي تتحرك لدى هبوب الهواء. أضف إلى ذلك الأثاث، الأغراض، الرسوم. كل واحدة من هذه الأشياء تتكون من معادن مختلفة. المواد المستعملة ليست كلها متشابهة، الألوان أيضا ليست متناسقة. هناك أيضا جملة من المعلومات المتعلقة بالإنارة التي تكتنف المكان، الظلال، السماء، السحب المتحركة، الشمس. جسمي لوحده يرسل لك ملايين المعلومات المتعلقة بوقفتي، حركاتي، نظراتي، تعابير وجهي التي تتغير من لحظة لأخرى. وكل هذا يدخل ضمن المعلومات البصرية فقط! زد على هذا المعلومات السمعية الأصوات المختلفة والمتنوعة، قريبة كانت أم بعيدة، الانعكاسات المختلفة لصوتي، درجة ارتفاعه، نبرته، نسق كلامي، الأصوات الناتجة عن احتكاك ثيابنا عندما نتحرك، الحشرات التي تطير، الطيور البعيدة، صوت حفيف أوراق الأشجار، وهكذا. لكن ليس هذا كل شيء: أنت أيضا غارق في المعلومات الحسية والمتعلقة بحرارة الطقس، رطوبته، روائح النباتات المختلفة

المحيطة بنا، التي تختلف روائحها باختلاف تيارات الهواء، الإحساس بكل النقاط المتعددة من أجسادنا لدى لمسها للأرض، الـ...

-حسن حسن، لقد أقنعتني، قاطعته. أعترف، لم أكن لأستطيع أبدا جمع كل هذه المعلومات، وعيناي مغمضتان وأذناي مسدودتان. هذا صحيح.

-وهذا لسبب بسيط: لست واعيا لوجود كل هذه المعلومات. هناك العديد منها، وذهنك يقوم بفرزها لا شعوريا. تستوعب جزءا منها لكن ليس كلها.

-أجل، دون شك.

-الأهم هنا هو أن عملية الفرز التي تتم عندك تختلف عن التي تتم عندي. إذا طلبنا من أشخاص آخرين أن يقوموا بنفس التمرين ويضعوا لائحة بما يرونه في محيطهم، لن نحصل أبدا على لائحتين متماثلتين. كل واحد سيقوم بفرز مختلف عن الآخر.

-حسن.

-وهذا الفرز لن يحصل عشوائيا.

-كيف؟

-معتقداتنا ستدفعنا إلى غربلة الحقيقة، هذا يعني فرز ما نراه، ما نسمعه وما نحسه.

-لا يزال هذا مبهما قليلا بالنسبة لي.

-سوف أعطيك مثالا، مثال كاريكاتيري كي نبسط الأمور.

-حسن.

-لنتخيل أنك تشعر، دون أن تعي هذا، بأن العالم مكان خطير، علينا أن نخشاه و أن نحمي أنفسنا منه. سيكون هذا ما تعتقده، اتفقنا؟

-نعم.

-إذا ترسخ هذا الاعتقاد بداخلك، إذن، على ماذا سيتركز انتباهك في هذه اللحظة بالذات؟ ما هي المعلومات التي ستجمعها إن اعتقدت في قرارة نفسك بأن العالم مكان خطير؟

-أوه حسن. لنرى..، لا أعرف، أتصور أنني سأبدأ بأن أحمي نفسي منك، بما أنني في النهاية لا أعرفك! أتصور أنني سأتأمل وجهك بالأخص كي أحاول أن أقرأ أفكارك، كي أفهم ما الذي يوجد وراء كلماتك اللطيفة. سأحاول أيضا أن أحدد أي عدم انسجام في أقوالك، كي أعرف إن كنت ماهرا أم لا. أيضا سأراقب باب الحديقة كي أظل متأكدا على الدوام أنه لا يظل مفتوحا وأنه بإمكاني المغادرة بسهولة إذا ما وقعت مشكلة. أجل، ماذا أيضا.. لنرى..، ربما سوف أركز انتباهي على ركيزة السقف التي تبدو وكأنها مثبتة بأمر من الروح المقدسة والتي يمكن أن تسقط فوقي في أي لحظة. سأراقب أيضا السحلية التي أسمعها تتجول فوق الأعمدة، لأنني أخشى أن تنزل من هناك وتعضني. أخشى هذا النوع من الزواحف. سألاحظ أيضا بأن الحصيرة مستعملة وأنه يمكن أن تخدشني الشظايا العالقة بها إذا لم آخذ حذري.

-بالضبط. تركيزك سوف ينقسم على الأخطار المحتملة في كل وضعية. وإذا ما طلب منك أن تصف حالتك وعيناك مغمضتان، هذه الأشياء التي قمت بذكرها هي ما سترد ببالك.

-دون شك.

-الآن، تخيل أنك تؤمن بما يعاكس هذا، تؤمن بأن العالم مكان جيد، وأن كل البشر طيبون، صادقون وودودون، وأن الحياة تقدم لك كمية وافرة من الطيبات. تصرف وكأن هذه الفكرة متأصلة في روحك. على ماذا سيرتكز انتباهك في هذه الحالة، وهل بإمكانك أن تصفها مغمض العينين مسدود الأذنين؟

-أعتقد أنني سأتحدث عن النباتات، لأنها جميلة فعلا، سأتحدث عن النسائم البديعة التي تلطف من حرارة الجو. أعتقد أنني سأتحدث عن السحلية أيضا، سأقول: "يا للروعة! هناك سحلية على السقف، على الأقل هكذا سوف نتخلص من الحشرات الملتصقة بزوايا الغرفة!" من ثم سوف أصف الوجه الهادئ لهذا الرجل اللطيف الذي ساعدني على اكتشاف العديد من الأشياء المهمة دون أن يجعلني أدفع ثمنا لخدماته.

-بالضبط! ما نعتقده عن الواقع، عن العالم المحيط بنا، يقوم مقام المصفاة، مثل زوج من النظارات المختارة بعناية والتي تقودنا بشكل خاص إلى رؤية التفاصيل المرتبطة بما نعتقده.. حتى أنها تجعل إيماننا أقوى. إنها سلسلة مغلقة. عندما نعتقد أن العالم مكان خطير سوف يتوجه تركيزنا إلى كل الأخطار

الحقيقية أو المحتملة الحدوث، وسوف ينمو شعورنا شيئا فشيئا بأننا نسكن في مكان محفوف بالمخاطر.

-هذا منطقي في النهاية.

-لكن هذا لا يتوقف عند هذا الحد. معتقداتنا ستمكننا أيضا من تفسير الواقع.

-تفسير؟

-ذكرت منذ قليل تعابير وجهي. هذه التعابير، مثلها مثل حركاتي، يمكن أن تفسر بطرق عديدة. معتقداتك ستساعدك على تفسيرها: الابتسامة مثلا ستكون علامة صداقة، طيبة، إغواء، سخرية، استهزاء، تكبر. النظرات الثابتة قد تكون علامة اهتمام، أو على العكس، علامة هجوم، رغبة في زلزلة الآخر. وكل شخص سيقتنع بتفسيره. ما تعتقده عن العالم سوف يجعلك تعطي معنى لكل ما هو غامض أو غير دقيق.. وهذا يدعم من معتقداتك مرة أخرى.

-بدأت أفهم الآن لماذا قلت أن ما نعتقده يصبح واقعنا.

-أجل، وخاصة أن هذا لا ينتهي هنا.

-هذا شيطاني!

-عندما تؤمن بفكرة ما، تجعلك تتبنى تصرفات معينة، والتي سيكون لها تأثير على تصرفات الآخرين بطريقة تدفعك هنا أيضا إلى تعزيز ما تؤمن به.

-أوه! هذا فعلا مذهل.

-هذا بسيط. لنظل في نفس الفكرة: أنت مقتنع بأن العالم مكان خطير، وأنه يجب أن نحتاط منه. كيف ستتصرف عندما تلتقي أناسا عاديين؟

-سوف آخذ حذري.

-أجل، ووجهك سيكون على الأرجح خال من التعابير، غير جذاب.

-بالتأكيد.

-لكن هؤلاء الأشخاص الذين تقابلهم للمرة الأولى سيلاحظون ذلك، سيشعرون به. كيف سيتصرفون حيالك؟

-في الواقع، هناك احتمال أن يتوجسوا مني وأن لا ينفتحوا على الحديث معي.

-بالضبط! غير أنك ستلاحظ هذا، ستستشعر الحذر في تصرفاتهم، سيتصرفون بنوع من الغرابة معك. احزر كيف ستفسر هذا انطلاقا من معتقداتك.

-سوف أقول لنفسي أنني كنت محقا في حذري.

-اعتقاداتك تصبح أقوى.

-هذا فظيع.

-في هذه الحالة نعم. لكن هذا يمكن أن يحصل أيضا في المثال المعاكس، إذا كنت مقتنعا في داخلك بطيبة كل الناس، سوف تتصرف بطريقة ودودة مع الآخرين، سوف تبتسم لهم، ستكون منشرحا. وهذا بالطبع سيدفعهم لأن

يكونوا ودودين تجاهك أيضا، وأن يرتاحوا لوجودك. سوف تتيقن لا شعوريا أن العالم مكان طيب. اعتقادك سوف يصبح أشد. لكن عليك أن تفهم أن كل هذه العملية تجري دون وعي. لهذا هي قوية. لن تقول لنفسك في أي لحظة كانت "جيد ما كنت أظنه، الناس طيبون فعلا" لا. لن تضطر لقول هذا لنفسك لأنه بالنسبة لك هذا أمر مسلم. هكذا، الناس طيبون، هذا واقع. بنفس الطريقة، هؤلاء الذين يعتقدون أنه يجب أن يحموا أنفسهم من الآخرين بأي ثمن كان، سيجدون أن مقابلتهم لأشخاص شريرين أمر عادي، حتى وإن استنكروا ذلك.

-هذا جنوني. في النهاية، دون أن ندرك ذلك، كل واحد منا يبتكر واقعه الخاص به، والذي هو في الحقيقة نتاج ما يؤمن به. هذا فعلا جنون. مثير للهلوسة!

-الكلمة الأخيرة التي قلتها تصف الوضع بدقة.

خمنت لديه شعورا بالرضا. لا بد أنه لاحظ أنني بدأت أعي قوة وامتداد هذه النظرية. كنت مخدوعا، شعرت أن كل الكائنات البشرية هم ضحايا لأفكارهم لظنونهم ولـ "معتقداتهم"، كي أعتمد المصطلح الذي ذكره. الأفظع من هذا أنهم لا يدركون ما يفعلون. والسبب أنهم لا يعرفون أنهم يعتقدون ما يعتقدون. ظنونهم ليست ذات بعد حقيقي في وعيهم الخاص. أردت أن أصرخ في الأرض بأكملها، أن أشرح للآخرين أنه عليهم التوقف عن الإيمان بكل شيء، رغبت في أن أقول لهم أن الحياة تعفنت بسبب أشياء ليست حقيقية. رأيت نفسي أجوب العالم في واحدة من الشاحنات المستعملة في الترويج لألعاب

السيرك، أصرخ في مكبر الصوت الذي يوزع صوتي المتضخم من مدينة لأخرى: "سيداتي وسادتي، عليكم أن تتوقفوا حالا عن الإيمان بما تؤمنون به. أنتم تعذبون أنفسكم، صدقوني" ثلاثة أيام بعدها تكفي لأن يحضر الرجال في البزات البيضاء للبحث عني ويلبسوني قميص المجانين. سيكون لي السيرك الخاص بي وبأبواب مبطنة أيضا.

-حسن، هناك شيء آخر: هذه المعتقدات التي لدينا، أي مجالات تخص؟ أين تمتد تحديدا؟

-كلنا قد طورنا أفكارا تتعلق بنا، تتعلق بالآخرين وبعلاقاتنا معهم، تتعلق بالعالم المحيط بنا وبكل شيء تقريبا، بداية من قدرتنا على النجاح في دراستنا وصولا إلى دراسة أبنائنا، مرورا عبر تقدمنا المهني وعلاقاتنا الخاصة. كل واحد منا يحمل بداخله كوكبة من الاعتقادات. لا نستطيع حصرها، وهي تقوم بتوجيه دفة حياتنا.

-وبعض هذه المعتقدات إيجابي، البعض الآخر سلبي أليس كذلك؟

-لا، ليس تماما. لا نستطيع أن نحكم على أفكارنا. الشيء الوحيد الذي نستطيع تأكيده هو أنها لا تعبر عن الحقيقة. الأهم من هذا، في المقابل، هو أن نفهم تأثيراتها. كل فكرة يمكنها أن تخلف في آن آثارا إيجابية وأخرى محدودة. لكنني الآن أعرف أن هناك أفكارا تخلف عدة نتائج إيجابية مقارنة بالنتائج الأخرى.

-أجل، يبدو لي أننا نميل إلى الاعتقاد بأن العالم مكان جيد، صحيح؟ علاوة على ذلك، لا أرى كيف أن اعتقادنا بأن العالم مكان خطير يمكن أن يحدث آثارا إيجابية.

-بلى، ذلك ممكن. اعتقاد كهذا سيدفعك بالطبع إلى أن تحمي نفسك جيدا، سوف تفوت على نفسك بعض متع الحياة بالطبع، لكن الحال هو، إذا ما صادفت يوما ما خطرا حقيقيا، سوف تكون محميا أكثر من الشخص الذي يظن أن كل شيء يسير بطريقة جيدة في أكثر العوالم أمنا.

-أجل.

-لذلك يجب علينا أن نمعن النظر في كل ما نؤمن به، ثم أن نعي أنها مجرد أفكار، وفي النهاية أن نكتشف آثارها على حياتنا. هذا سوف يساعدنا على فهم ما نعيشه بطريقة أفضل...

-بخصوص هذا، البارحة قلت لي أننا سنستعرض ما يعيقني عن أن أكون سعيدا.

-صحيح، لكنني سأجعلك تعمل لوحدك في البداية: لدي مهمتان لك، سوف تبدأ في إنجازهما ما أن ننهي حصتنا، لننتظر أن تعود "فوون."

-حسن.

-المهمة الأولى تتمثل في أن تحلم وأنت مستيقظ.

-أعتقد أنني أستطيع فعل هذا.

-إذن سوف تحلم أنك تعيش في عالم حيث كل شيء ممكن. تخيل أنه لا توجد حدود لما بإمكانك إنجازه. تصور أنك تمتلك شهادات في جميع المجالات الموجودة في العالم، لديك كل الخصال الجيدة، ذكاء لا مثيل له، حس متطور في مجال العلاقات العامة، مظهر مذهل..، كل ما ترغب به. كل شيء ممكن بالنسبة لك.

-أشعر أنني سأحب هذا الحلم.

-بعدها، ستتخيل كيف هي حياتك في هذه الظروف: ماذا ستفعل، مهنتك، الأشياء التي تستمتع بها، كيف تقضي وقتك. تذكر أن كل شيء ممكن. ثم ستدون هذا وتحضره لي.

-جيد جدا.

-تقتضي مهمتك الثانية أن تجري بعض الأبحاث.

-أبحاث؟

-أجل، أريدك أن تجمع نتائج التجارب العلمية التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية، عن تأثيرات العلاج بالوهم. سوف نتحدث عن هذا لاحقا.

-لكن أين سأجد كل هذا؟

-في الولايات المتحدة، كل المختبرات الصيدلانية تجري هذه الأبحاث لأنها مجبرة على هذا، ليس لديها الحق في طرح دواء جديد في الأسواق دون أن تثبت علميا أن تأثيره أقوى من تأثير دواء وهمي، أقصد بهذا مستحضرا غير فعال. يقوم

هذا بمنحنا بطريقة غير مباشرة درجات غاية في الدقة عن مدى نجاعته. سوف تجد ما تبحث عنه.

-هل تعرفه أنت؟

-بالطبع.

-لكن، في هذه الحالة، لماذا تريد مني أن أبحث عنه؟ سوف نربح وقتا مضاعفا إذا ما تحدثنا عنه مباشرة. لأنني سآخذ الطائرة يوم السبت لأعود إلى بلادي، لن يترك لنا هذا فرصا عديدة للالتقاء.

-لأن الإنصات إلى شخص ما وهو يقدم لك سلسة من المعلومات يختلف تماما عن البحث عنها بنفسك.

-اعذرني، لكني لا أرى الفرق.

-إذا ما حدثتك عنه، فربما ستشك في صحة الأرقام التي سأقدمها لك. وبما أنني صرت أعرفك قليلا، فهذا أمر ستقوم بفعله بالتأكيد! ربما ليس مباشرة، لكن لاحقا.. وهكذا، ليس بسماع الآخرين يتحدثون نقوم بتطوير أنفسنا. إنما بالعمل وبعيش التجارب.

-لكن، من أين سأتمكن من جمع هذه المعلومات؟ لا أقطن في أحد الفنادق. لا أمتلك وسيلة تمكنني من ولوج شبكة الإنترنت، ولم أر أبدا مقاهي إنترنت في الجزيرة.

-الشخص الذي يدع أول مطب يصادفه يوقفه لن يذهب بعيدا جدا في حياته. هيا. أثق بك.

-شيء أخير: في أي ساعة علي أن أحضر غدا كي أجدك متفرغا تماما؟

نظر إلى للحظات مبتسما. تساءلت إن كنت قد تفوهت مجددا بما لا يجدر بي قوله. قمت بإحصائها اليوم.

-بالأخص، عليك أن لا تؤمن بأنك في حاجة إلي. الوقت الذي سوف أقضيه معك عندما تأتي سيكون كافيا.

8

عندما عدت إلى سيارتي تساءلت كيف يمكن لهذا الرجل أن يظل بهذا الهدوء والسكينة، وتلك النظرات المرحبة التي لديه، مع أنه يقول أحيانا أشياء لا تتضمن بتاتا ما أرغب في سماعه.

كان بالفعل كائنا مليئا بالمفاجآت، لا يشبه البقية. وتواصل استغرابي لمعرفته كل هذه المعلومات عن الغرب، معرفته هذه تتعارض مع شخصيته. أستطيع أن أقسم أنه لم يغادر بلدته إطلاقا، كان صعبا أن أقتنع بأن هذا العجوز القادم من الطرف الآخر للعالم تمكن من استخلاص حكمته من الأبحاث المجرات في الغرب. غريب.

بدأت أعرف الطريق بشكل أفضل وصرت في "آبود" خلال قليل من الوقت. غابت الشمس سريعا وراء الأفق، وكان الليل قد حل عندما ركنت سيارتي بالقرب من السوق الكبير. انبعثت روائح البخور من حديقة مطعم صغير. غالبا ما يستعمل البالينيون البخور لإبعاد البعوض. غالبا ما يتم وضعه في شكل أعواد تشتعل فوق أكواب مرصفة في الحدائق أو في مدخل المنازل. هذا يساهم في خلق الأجواء الخلابة لليالي "آبود."

دخلت إلى المطعم، جلست تحت شجرة، وطلبت سمكة مشوية. كانت هناك شموع موضوعة على الطاولات التي في الحديقة، أضيفت لها بعض المشاعل المغروسة بين الأعشاب، كانت تشتعل ببطء وتبعث في المكان إنارة لطيفة ودافئة. كانت هناك بعض الأصوات الصاخبة هنا وهناك باستمرار في الشارع، هم دون شك بعض البالينيين الذين يستميلون الأجانب من المارة ويعرضون عليهم خدمات سيارات الأجرة المرتجلة. كانت أمامي ساعة أخرى حتى يبدأ العرض الموسيقي. بالي هي المكان الوحيد في العالم الذي لا ألقي فيه نظرة على ساعة يدي كل نصف ساعة. هنا، ليس للوقت أهمية. لتكن أي ساعة كانت، ببساطة. مثل الطقس: لا أحد يسأل عن الساعة. على أي حال، كل يوم تهطل الأمطار بقدر ما تشرق الشمس هنا. هكذا. البالينيون يقبلون كل ما تقدمه لهم الآلهة دون أن يطرحوا أسئلة محرجة.

فكرت في طلب الحكيم، أن أحلم بحياة مثالية أكون فيها سعيدا. أحتاج قليلا من الوقت لكي أضع نفسي مكان شخص يستطيع الحصول على كل شيء ثم أتخيل كيف ستصبح حياتي. لسنا معتادين على النظر للأمور بهذا الشكل. شخصيا، لم أعد ألاحظ كل يوم ما الذي يجري بطريقة سيئة في حياتي، دعك من أن أتخيل الطريقة التي أرغب في أن تكون عليها..

عندما سمحت لنفسي بأن أحلم، كان أول شيء خطر ببالي، لو كان كل شيء ممكنا، أن أغير مهنتي. كنت مدرسا، بالتأكيد هي مهنة نبيلة ومقدسة، لكنني اكتفيت من تدريس مادة لتلاميذ لا يقدرونها والتي في الغالب تكون مملة. كنت أعرف طبعا أننا إذا تعاملنا معهم بطرق مختلفة سوف نقوم بتحفيز رغبتهم

في التعلم وفي النهاية أن نلهمهم، لكنني كنت ملزما بتطبيق المنهج حرفيا وأن أتقيد بالأساليب البيداغوجية في قاعة الدرس، أساليب لا تتوافق أبدا مع طلاب هذا الجيل. لم أعد أحتمل أن يتم حصري من طرف الإدارة من جهة ومما يتطلبه الواقع من جهة أخرى، كانا طرفين مختلفين تماما. كنت راغبا في القليل من الهواء النقي، في أن أغير مهنتي بطريقة جذرية، وأن أثبت نفسي في مجال فني. كنت أحلم بأن أجعل من شغفي مهنتي، وشغفي كان التصوير الفوتوغرافي. كنت أحب أن أجمع كل تعابير الوجه في لوحات تبرز شخصية الشخص الذي أصوره، مشاعره، حالاته الروحانية. حتى تصوير حفلات الزفاف كان يجذبني. لو كان كل شيء ممكنا، كنت لأفتتح ستوديو خاصا بي. لن يكون مثل هذه المصانع التي تبيع صورا جاهزة، دون معنى، لا، سيكون ستوديو مختصا في التقاط الصور في اللحظة نفسها، صور حيوية، تجمع تعابير وطبائع صاحبها. صوري تروي قصصا. عندما تراها، تفهم ماذا يشعر وفيما يفكر صاحبها، سوف تقوم بتوضيح مشاعر الآباء، آمال ومخاوف أصهارك، نظرات الأخت الكبرى التي تتساءل متى سيحين دورها، نظرات المطلقين الذين يقولون لأنفسهم أن العرسان الجدد يؤمنون بوجود بابا نويل. أريد أيضا أن أخلد سعادة الأشخاص، حتى يتمكنوا طوال حياتهم من إلقاء نظرة تجعلهم يغوصون مجددا في أجواء ذلك اليوم الكبير ويشعرون مرة أخرى بالمشاعر التي انتابتهم حينها. صورة ناجحة تحكي أكثر ما يحكى في حوار طويل.

سيكون للستوديو خاصتي نجاح كبير وستكون له سمعة خاصة. المجلات المهتمة بأعمالي ستنشر البعض من إنجازاتي. سوف أعرف أخيرا بفضل موهبتي. أجل، سيكون هذا رائعا. سوف أجعل الأسعار معقولة حتى يتسنى لجمهور

عريض التمتع بخدماتي. مع ذلك، سوف أتمكن من جني ضعف أو حتى ثلاثة أضعاف الراتب الذي أتقاضاه كمدرس. سأتمكن أخيرا من أن أشتري منزلا لنفسي. منزل جميل سأقوم بتصميمه بنفسي حتى يتم إنشاؤه. سوف تكون لي حديقة سأطالع الكتب فيها خلال نهايات الأسبوع، مستلقيا على كرسي طويل تحت ظلال شجرة الزيزفون. سوف أستلقي على العشب وآخذ قيلولتي، رائحة الأقحوان تدغدغ خياشيمي. أيضا وبالطبع سأكون مع امرأة تحبني وأحبها. هذا سيحدث من تلقاء نفسه.. سوف أتعلم أيضا العزف على البيانو. لطالما رغبت في اللعب على هذه الآلة! هذه المرة، سأقوم بذلك. وثم سوف أعزف مقطوعات شوبان، ليلا، في صالوني الكبير، بينما تشتعل الأخشاب في المدفأة. سوف أدعو أصدقائي وأعزف لهم من وقت لآخر. سوف تكون سعادتي معدية.

-سمكتك سيدي.

-أوه، عفوا؟

-هل تريد قطع ليمون أم صلصة حريقة؟

-ليمون، شكرا.

كانت السمكة بأكملها موضوعة في طبقي، خيل إلى أن نظرتها مصوبة نحوي. أحسست بالذنب لحلمي بالسعادة بينما ماتت هذه السمكة لأجلي. إنها تذكرني بهذا بتصويب نظراتها نحوي.

كنت متفاجئا لأن حلمي لم يخرج عن المقاييس العادية. لم أكن في حاجة لأن أصبح ميليارديرا حتى أصير سعيدا، ولا لأن أكون نجم روك أو رجل سياسة

مشهور. ومع ذلك، هذا الحلم البسيط والسعادة التي يحتويها يبدوان بعيدي المنال. أدين للمعلم بفتح باب يريني كيف يمكن أن تكون حياتي. باب ما أن يغلق سيترك خلفه طعما مرا عندما أعود إلى وعيي وأرى الفرق الشاسع بين الحقيقة والحلم.

بقيت لي المهمة الأخرى. تساءلت أين بإمكاني ولوج شبكة الإنترنت. في أحد الفنادق دون شك، على شرط أن يكون فاخرا كفاية حتى يكون ملحقا بشبكة إنترنت كنتيجة لذلك. لكن هناك احتمال أن لا يسمحوا لي باستعمال شبكتهم بما أنني لست نزيلا عندهم. حسن، سأحاول غدا. سأجرب حظي في أحد الفنادق الفخمة القريبة. سوف أخترع كذبة ما وسأتصرف بناءا على ذلك.

لم تبدو السمكة موافقة على الفكرة. ظلت تراقبني بعينها وتلومني. كانت شهيتي للأكل منعدمة، طلبت الحساب أخيرا، تاركا طبقي ممتلئا للنصف. آسف عزيزتي، لقد قتلت هدرا.

في الخارج، كان الجو يبعث على الاسترخاء. عثرت على "هانز" و "كلوديا" أمام قاعة الاحتفالات. كانا يأكلان وهما واقفان وعلى عجل شطائر لم تكن تبدو شهية على الإطلاق. أمر طبيعي: لماذا نستمتع بالأكل؟ سنربح المزيد من الوقت إذا ما تناولنا طعامنا وقوفا، وهذا أقل تكلفة. باختصار: أمر عقلاني أكثر!

-مساء الخير "جوليان"! قالا بصوت واحد كأنهما في جوقة موسيقية.

-مساء الخير لكما! إذن، كم معبدا زرتما بعد الظهر؟

-لنقل أننا استثمرنا يومنا جيدا، أجاب "هانز."

-العرض سيبدأ بعد قليل، هتفت "كلوديا."

كانت قاعة الحفلات عبارة عن مدرج في الهواء الطلق. كان المدرج ممتلئا تقريبا، جلسنا في الخلف، في المدرجات العليا لكن في وسطها. بما أنني كنت متطلبا جدا فيما يتعلق بالموسيقى، كانت لدي بعض المآخذ تجاه الـ "غاميلان"- نوع من الكسيليفون كبير الحجم مصنوع من خشب البامبو يصدر مجموعة محددة من الأصوات غير رقيقة. هذا المساء، كان هناك على الأقل ثمانية منها على المسرح، ولما بدأ العرض، فوجئت بمدى قوة الصوت الذي ارتفع في المدرج. كان الصوت في البداية يصم الآذان بل كان عبارة عن نشاز، لكن نوعا من الانسجام ظهر فيما بعد. على أن أعترف بأنه كان هناك شيء من السحر يكتنف هذه الموسيقى القليلة التناسق بالنسبة لشخص قادم من الغرب. خلال لحظات، تكرار الألحان يبدأ في تخديرك، تجد نفسك في حالة أخرى محمولا على أنغام استحوذت عليك وتملكت فكرك. انبعثت رائحة بخور قوية في المدرج، في أماكن عدة وأحاطت بالجمهور. بعد مضي عشر أو ربما عشرين دقيقة، لأنني فقدت الإحساس بالوقت، ظهرت الراقصات على المسرح، مرتديات ملابسهن التقليدية الغنية بالألوان الجذابة. كانت تسريحاتهن راقية تمثلت في شينيون مزين بالجواهر وبالأشرطة الرقيقة. خطواتهن الراقصة كانت دقيقة، ناعمة. كل حركة كانت تحمل أنوثة ونعومة لا مثيل لها. من بعيد تمكنت من رؤية أعينهن، كانت نصف مشمئزة، وفي لحظة واحدة فهمت كل شيء: لقد كن منتشيات، كنا يرقصن وهن منومات. كان مذهلا أن تراهن في هذه الحالة من الحركات المثالية

المتناسقة مع أصوات الطبول التي حافظت على نشوتهن ونقلتها إلى الجمهور. كانت تنقلاتهن في الفضاء محسوبة، تماثلهن مذهل. كانت أيديهن تلعب دورا مهما في الرقص. كانت تتحرك في سلسلة من الحركات الدقيقة، منظمة للغاية تساوت فيها الأناقة مع الدقة. كان الجمهور مأخوذا بالعرض، أحسست أن المشاهدين يتحركون بانسجام مع الراقصات. سحرتنا روائح البخور. كان "هانز" الوحيد الذي يلقي نظره على ساعة يده من حين لآخر. كانت "كلوديا" خاضعة لسحر العرض.

خيل لي أن روحها سترتفع من مكانها، ظاهرة كان عليها أن تجذب انتباه زوجها محب التحليل العلمي. تسارع النسق شيئا فشيئا، والصوت المتصاعد للطبول صار أقوى واستحوذ على عقلي وسيطر على روحي والتي لم تعد ملكي. رائحة البخور سكنت جسمي وأغرقت كل خيط من روحي. أضواء المسرح بدأت تدور داخل رأسي في حين أن كل خلية من خلايا جسمي أخذت تهتز وفق الإيقاع.

9

صعب أن تقود السيارة ليلا بعد أن تشهد حفلا مماثلا. لحسن الحظ، كان كافيا أن أتبع سيارة الهولنديين دون أن أشغل بالي بالتفكير في الطريق. كنت أعرف أنه بإمكاني الوثوق ب-"هانز": لقد حافظ على كل مداركه العقلية سليمة. قدت سيارتي بطريقة آلية، ومع ذلك بدت لي الطريق طويلة للغاية. اجتزنا غابات، حقولا وقرى لا تحصى كان على أن أنتبه ونحن نمر عبرها كي لا أدهس أحد المارة الذين مازالوا في الخارج. الأصعب من هذا كان أن أتفادى السيارات التي تسير في كل اتجاه، في أغلب الأحيان كانت أضواءها لا تعمل. يؤمن البالينيون بأن الأرواح تعود في أشكال أخرى ولهذا هم لا يخشون الموت. هذا جعلهم يصبحون أقل حذرا، إن كانوا مترجلين أو وراء مقود السيارة.. القاتل المسكين الذي كنته كان عليه أن يضاعف من حذره.

كان الوقت يقارب منتصف الليل عندما وصلنا إلى شاطئ "بميتران". كان الظلام حالكا، لكن النقاط المضيئة كانت تدل على وجود عدة أشخاص في أماكن مختلفة من الشاطئ. كان القمر يتخلص للحظات من السحب التي تحاول حجبه ويسلط نوره الأبيض البارد على الأمواج الصغيرة التي تلامس

الرمال. وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة أمام عامل ينظم عمليات الدخول إلى الشاطئ.

-طاب مساؤك، قدمنا لمشاهدة السلاحف، قال "هانز."

-مساء الخير. لديكم الحق في الدخول إلى الشاطئ إذا ما اتبعتم التعليمات: عليكم أن لا تقتربوا من السلاحف الكبيرة لمسافة تقل عن مترين اثنين. يتوجب عليكم أيضا أن تخفضوا أصواتكم. كذلك عليكم أن تظلوا في طرف اليابسة ليس لديكم حق التواجد في المساحة التي تفصل السلاحف عن البحر.

-حسن.

-أتمنى لكم سهرة طيبة.

خطونا الشاطئ في صمت، شاعرين بالهواء الساخن المفعم بالروائح البحرية المختلفة. تمكنا من تمييز كتل كبيرة داكنة موزعة على الشاطئ: سلاحف تبلغ من الطول مترا وعشرة سنتيمترات وتزن مائة وعشرين كيلوغراما. كانت تبدو جامدة، كأنها نائمة على الشاطئ. الضوء الباهت الذي كان يسلط عليها بطريقة جزئية، مثل نور سماوي، جعلها تبدو مثل كائنات ما قبل التاريخ مثيرة للقلق. تأملناها، بتمنع، لوقت طويل. لم نكن لنفسد هدوؤها أبدا. كانت تستعد لإتمام أجمل عمل في العالم في صمت مقدس، خدشه بالكاد هدير الأمواج الخافت. كنا غارقين في كون من اللانهاية، محاطين بالسكينة، مخدرين بسحر هذه اللحظة النادرة، كنا نشعر بالنبض الصامت لقلوبنا يضج أعماقنا.

مضت عدة دقائق على هذه الحالة، دون أن ننطق بكلمة واحدة، ثم توجهنا نحو مجموعة من الأشخاص متجمعين في مكان غير بعيد عنا. كانوا ينتمون لجمعية تعنى بحماية الطبيعة، أسرعوا على الفور لحضور الحدث. كانوا يحمون السلاحف ويراقبون البيوض في انتظار أن تفقس، لأنه ما أن تخرج السلاحف الصغيرة حتى تتركها أمهاتها وحيدة على الرمال. أوضحوا لنا أنهم يملكون دفتر للولادات السنوية كي يتابعوا الإحصاءات كل سنة. كان الصيادون يطاردون السلاحف على مدى قرون، لكن الحكومات المستاءة من الهجوم المكثف المؤدي إلى اختفاء أنواع من الحيوانات، انتهت إلى منع هذا النشاط. منذ ذلك الوقت أصبح الصيد الغير شرعي على قدم وساق، وكان العاملون في مجال البيئة يبذلون بعض الجهود لمراقبة الشواطئ النادرة المعنية خلال موسم الإباضة القصير: ليلة أو ليلتان كل السنة.

ولدت السلاحف، التي ستبيض الليلة، هنا، على نفس هذا الشاطئ، منذ ما يزيد عن خمسين سنة. سافرت كل هذه السنوات، اجتازت عشرات آلاف الكيلومترات، وعادت لتبيض في نفس المكان الذي ولدت فيه منذ نصف قرن. لم يعرف أحد السبب، لم يقدر أي عالم على تفسير هذا. هكذا ببساطة، وكان هذا مؤثرا.

تأملت السلاحف الصامتة، تحرس سرا ألفيا، تحمل حكمة مجهولة. لماذا عادت إلى هنا؟ كيف تمكنت من تذكر هذا المكان؟ كيف تمكنت من أن تتوجه عبر المحيطات لتعود إلى هنا، في المكان الذي ولدت فيه؟ ما هو المغزى من هذا؟ العديد من الأسئلة التي ظلت دون إجابة.

انتظرنا تفقيس البيوض لما يقارب الثلاث ساعات، ثم تأملنا بعيون متسعة وقلوب متوجسة، السلاحف الرضيعة تتوجه نحو البحر، تجتاز دون تردد الأمتار القليلة التي تفصلها عن المياه. أخبرونا أن معظم هذه السلاحف سوف تموت خلال الساعات القادمة، سوف تلتهمها كائنات مفترسة ومن ضمنهم: أسماك القرش. تلك التي تكمن من الوصول إلى أعماق البحر تكون فرصتها في النجاة أكبر. حسب الإحصاءات، من بين كل مواليد هذه الليلة، واحد فقط سيعيش للنهاية.

-الحياة مثل لعبة اليانصيب، قالت "كلوديا" خائبة الظن.

-الحياة سباق متواصل، رد عليها زوجها بحزم. السريعون فقط هم من سينجون. أولئك الذين يتراخون، يتكاسلون أو يهتمون بالملذات سيموتون. يجب دائما أن تكون في المقدمة.

كنت منبهرا، بالسلاحف الوليدة وبالكلام الذي سمعته على حد السواء. هذا مذهل: قام كل شخص بتلخيص نظرته للحياة في بضع كلمات. آخر قطعة من الأحجية الهولندية وضعت في مكانها الصحيح، وأعطت معنى لمجموعة المشاهد التي شهدتها. فهمت الآن لماذا قبلت "كلوديا" لعب دور ربة المنزل الذي فرضه عليها زوجها، لقد قامت باختيار الرقم الخاطئ. عندما نخسر فإننا نخسر، لا يوجد شيء لفعله حيال ذلك. لا نقدم حججا عندما نخسر في الكازينو أو في اللوتو. تظل الأشياء كما هي، لا فائدة ترجى من محاولة تغييرها. بالنسبة لـ "هانز" فهمت بشكل أفضل هوسه بالحركة وعدم قدرته على التمتع ببعض لحظات الراحة.

تساءلت إن كانت لدى السلاحف أيضا معتقدات حول الحياة، أو ربما العكس، غيابها هو ما يمكنها في النهاية من العيش في وئام مع بعضها البعض.

تأملت السلاحف الرضيعة تتوجه بسلام نحو مكانها الطبيعي، وتساءلت أيها ستعيش لتعود هنا مجددا، بعد خمسين سنة، عندما تبلغ بدورها السن التي تهب فيها الحياة.

10

عدت إلى شاطئي بسلام، ثم أخذت حمامي اليومي وتساءلت كيف ستكون رحلتي إذا ما كنت سلحفاة رضيعة. بما أنني كنت بطبعي فريسة للتردد، تساءلت إن كان التعبير "تآكله الشك" لم يحمل معنى خاصا في هذا السياق.

في الغد، استيقظت مبكرا بعد قسط قليل من النوم. أردت أن أجد فرصة للقيام بالأبحاث التي طلبها المعلم قبل أن أذهب للقائه بأسرع وقت ممكن.

عينت بواسطة دليلي السياحي أقرب فندق إلي وقفزت إلى سيارتي. بعد مضي عشرين دقيقة، أبطأت في سرعتي أمام مدخل "أمنكيلا"، بدون شك هو أحد أفخم الفنادق في العالم وأيضا أكثرها حميمية. ابتلعت لعابي عندما وصلت إلى مدخل الحديقة، وراء مقود سيارتي المستأجرة بسعر بخس، تنبهت للتو لشكلها المنفر الذي أبرزته قذارتها بعد أيام من الاستكشاف على الطرقات المغبرة للجزيرة. أنقصت سرعتي لدى عبوري المدخل المحاط بوفرة من الأزهار، آملا ألا أصدر ضجيجا، وركنت سيارتي أبعد ما كان ممكنا عن جهة الاستقبال. اتبعت المسار الجميل المؤدي إلى مدخل الفندق، كان يتعرج عبر حديقة مليئة بأشجار ونباتات قدت بعناية. كان العشب ممتدا على أرض وعرة. رأيت فوقه رجلين جالسين على ركبهما يحمل كل واحد منهم مقصا في يده،

كانا يقلمان العشب باهتمام. في أماكن مثل هذه، كان ممنوعا استعمال آلة جز العشب لأنها تزعج راحة النزلاء بضجيجها. لبثت جامدا بضع لحظات قبل أن أواصل طريقي، متمنيا أن اتبع مشية طبيعية كي أبدو مثل بقية النزلاء. كان صعبا أن أواصل على هذا النسق عندما رأيت جمال المشهد الذي يوفره الموقع، كادت أنفاسي تنقطع لرؤيته. سلسلة من المباني دون أرضيات وجزئيا دون جدران، جمعت على الطراز الاستعماري المعاصر، تم إنشاؤها من أنواع الخشب النادر ومن الأحجار الجميلة تهب للناظر تدرجات لطيفة بلون الكريما، وكانت تفتح على جهة البحر. أمامها توجد ثلاث مسابح مذهلة ترتفع على ثلاث مستويات. كان المسبح الأول ممتلئا إلى حافته بالمياه التي كانت تنزلق بصمت نحو المسبح الثاني، الذي كان في ارتفاع أخفض من الأول، وبدوره كانت المياه تنزلق منه نحو المسبح الثالث. يشكل محوري، عن بعد، كان المشهد مندمجا مع البحر بلونه الأزرق المماثل للون المسابح. كانت المسابح مدرجة بطريقة ساحرة مع المشهد حتى بدا وكأن البحر لون بالأزرق عن عمد ليتماشى معها. وفوقها انتشر اللون الأزرق اللامتناهي للسماء. انتشرت بضع أشجار جوز الهند وبعض الأشجار الاستوائية بطريقة منظمة كي تزيد من جمال وروعة المكان. شعرت بأنه لا شيء يمكن أن يضاف أو يحذف دون أن يؤذي هذا الجمال. هدوء تام يخيم على المكان، لا وجود لحضور بشري. الأرجح أن النزلاء يفضلون الخصوصية التي توفرها لهم المسابح الخاصة أمام كل جناح، المحاطة بحدائق أنيقة تحميهم من النظرات المتطفلة. قلة من العاملين كانوا يظهرون في هدوء وصمت ببدلاتهم ذات اللون الموحد مع الجدران، كانوا يسيرون كالأشباح بين أعمدة المباني المبعثرة. واصلت طريقي نحو الاستقبال، شعرت بسوء أكبر لعدم إحساسي

بالراحة للتواجد في هذا المكان. استقبلني رجل مميز، يرتدي بدلة من لون واحد هو أيضا، لطيف ومبتسم.

أخذت نفسا عميقا.

-مرحبا، أرغب في استعمال جهاز متصل بشبكة الإنترنت لو سمحت.

-هل تقطن هنا يا سيدي؟

لماذا قام بطرح هذا السؤال علي؟ إنه يعرف بكل تأكيد أنني لست نزيلا عندهم. قرأت في دليلي السياحي أن الفندق يوظف مائتي شخص كي يعتنوا بسبعين نزيلا. العاملون يحفظون أسماء القاطنين هنا عن ظهر قلب ويستعملونها في كل مرة يصادفون أحدهم فيها. "كيف حالك سيد سميث؟" "إنه يوم جميل سيدة غرين أليس كذلك؟" "تبدو في صحة جيدة سيد كينغ"

-لا، أنزل في فندق "ليجيان"، كذبت و ذكرت فندقا يقع في جهة أخرى من الجزيرة. لدي بعض الأشغال في الجهة الشرقية وأحتاج بشدة أن أتصفح شبكة الإنترنت لبضع دقائق.

-اتبعني من فضلك سيدي.

قادني إلى قاعة أنيقة مجهزة بجهاز كمبيوتر شغال، جاهز لاستقبالي. كانت الغرفة أكثر اتساعا من شقتي التي أقطن فيها في الديار، كانت القاعة مفروشة بأناقة، سجاد سميك على الأرض، زينة مشغولة من الخشب الاستوائي على الجدران، باب من البلور مقسم في مربعات صغيرة بمقبض منحوت بأناقة وعلى الأغلب يفوق سعره سعر تذكرة طائرتي.

تفحصت النتائج التي عرضها محرك البحث لمدة ربع ساعة تقريبا قبل أن أدخل إلى صفحة تتضمن المعلومات التي أريدها.

ما قرأته أكد لي ما تحدث عنه المعلم بإيجاز: تجمع مخابر الصيدلة المرضى المتطوعين، المصابين بمرض معين. يوزعون على نصفهم الدواء الجديد الذي يفترض أنه يعالج هذا المرض ويوزعون على النصف الآخر دواء وهميا، وهو عبارة عن مادة غير فعالة وغير مضرة، ليس لها أي تأثير على الجسم، لكنها تشبه الدواء في كيفية تقديمها. هؤلاء المرضى بطبيعة الحال لا يعرفون أنهم يتناولون دواء وهميا: لديهم اعتقاد أن هذا العلاج سيشفيهم من آلامهم. يقوم الباحثون فيما بعد بتقييم النتائج المتحصل عليها من مجموعتي المرضى. ولكي يثبتوا مدى نجاعة الدواء الجديد، يجب أن تكون نسب تحسن أولئك الذين تناولوه أعلى من نسب تحسن الذين تناولوا الدواء الوهمي.

هكذا اكتشفت أن لدى الدواء الوهمي تأثير معين على المرضى، كان هذا مثيرا للدهشة، بما أن المرض كان حقيقيا في حين أن الدواء الوهمي كان مجرد محلول عديم الفائدة. التأثير الوحيد لديه كان على المستوى النفسي: ظن المرضى بأنه دواء وبناءا على هذا اعتقدوا أنه سيشفيهم. والذي أثار استغرابي بالفعل، هو عدد الحالات التي كان الاعتقاد بالشفاء فيها كفيلا لعلاج المرضى. بلغت نسبة هذه الحالات 30% تقريبا! حتى الآلام أمكنها أن تختفي! الدواء الوهمي أكثر فاعلية من المورفين في 50% من الحالات! كان المرضى يشعرون بالألم، يعانون، وتناول حبة صغيرة مصنوعة من السكر أو من أي مادة أخرى غير مؤثرة كان كفيلا بالقضاء على آلامهم. يكفي أن يؤمنوا بذلك..

واصلت البحث، مذهولا من كمية الأرقام المشابهة المتعلقة بأمراض متنوعة. ثم رأيت رقما سمرني في مكاني، شعرت بلزوجة أصابعي على لوحة المفاتيح: تم إعطاء مجموعة من المرضى دواء وهميا على أنه يعتمد في العلاج الكيمياوي و33% منهم فقدوا شعرهم. فغرت فمي أمام الشاشة. هؤلاء المرضى ابتلعوا قرصا من السكر معتقدين أنه دواء يسبب فقدان الشعر كأحد الأعراض الجانبية، وفقدوا بالفعل شعرهم! لكنهم لم يتناولوا شيئا آخر أبدا سوى هذه القطع الصغيرة من السكر، رباه! كنت مرعوبا، مذهولا بسبب قوة هذه الاعتقادات التي ألح عليها المعلم. كان هذا ببساطة أمرا لا يصدق. مع ذلك كانت الأرقام حقيقية، نشرت من طرف مختبرات معروفة بتخصصها في العلاج الكيمياوي. في اللحظة التي تلت ذلك، كنت ثائرا بعض الشيء، لماذا لا يتم الكشف عن هذه النتائج للعموم؟ لماذا لا يعهد بها للإعلام؟ سوف يفتح هذا المجال لمناظرات تقود للتشكيك في صحة العلم. إذا كانت الظواهر النفسية تستطيع إحداث تأثير مماثل على الجسم وعلى الأمراض، لماذا نركز الأبحاث على اكتشاف أدوية مرتفعة الثمن ولا تخلو أبدا من التأثيرات الجانبية؟ لماذا لا نركز أكثر على شفاء الأمراض عن طريق العلاج النفسي؟

تركت الغرفة وعن عمد تركت الكمبيوتر مفتوحا على الصفحة التي تقدم هذه الأرقام. مع قليل من الحظ، سيترأس النزيل الذي يدخل هنا مؤتمرا صحافيا كبيرا. ليس ممنوعا أن نحلم.

قمت بتحية عامل الاستقبال بشيء من الإهمال عندما غادرت، بالطبع دون أن أهتم لدفع ثمن الوقت الذي قضيته أمام الكمبيوتر: سيبدو هذا غريبا على واحد من السكان .

11

-صباح الخير! قلت للمرأة الشابة التي جاءت لاستقبالي كالعادة.

احتجت ساعة ونصف كي آتي إلى هنا من فندق " أمنكيلا". رؤية الحجرات والحديقة المحيطة بها كانت كافية لجعلي أغرق فورا في حالة عميقة من الراحة، كأنني صرت فوق سحابة صغيرة، أو مثل الإحساس الذي ينتابك عندما تعيد فتح أنبوب كريم الوقاية من الشمس الباقي منذ السنة الماضية وراحته ترجعك للحظات إلى المكان الذي قضيت به إجازتك الأخيرة.

-المعلم "سامتينغ" ليس هنا اليوم.

-عفوا؟

أعادني كلامها بعنف إلى الأرض. ليس هنا؟ المعلم وهذا المنزل يبدوان لي ملتصقان ببعضهما لدرجة أنني لم أستطع تخيل أنه يمكنه أن يغادر المكان.

-ربما هو غائب، لكنه سيعود صحيح؟

سوف أنتظره.

-لا، طلب مني أن أعطيك هذا، قالت ومدت لي ورقة باهتة اللون مطوية إلى أربع.

ترك لي رسالة؟ إذا أراد أن يفسر غيابه، لماذا ببساطة لم يقم بتبليغ المرأة رسالته شفويا لتقولها لي؟ فتحت الورقة وقرأت متناسيا وجودها:

قبل حلول لقائنا القادم:

-دون كل ما يمنعك من تحقيق حلمك في العيش بسعادة.

-اصعد إلى قمة جبل "سكو وو."

سامتينغ

أصعد إلى قمة جبل "سكو وو"؟! لكن هذا يمثل على الأقل أربع أو خمس ساعات من التسلق! وفي هذا الحر! لماذا لم يختر جبل "آنابيرنا"؟!

راقبتني مبتسمة، لم تكن مهتمة أبدا بمشاغلي.

-وهل قال شيئا ما عندما سلم إليك الورقة؟ هل أضاف تعليقا؟ سألتها؟

-لا شيء مهم. طلب مني أن أعطيها إياك وقال إنك سوف تفهم؟

فهمت خاصة أنه لم يكن هنا لاستقبالي، أنا الذي لازال أمامي ثلاث أيام فقط قبل رحيلي. كنت محبطا للغاية.

-هل تعرفين إن كان سيكون هنا غدا؟

-بدون شك، أجابت بنبرة تدل على الأغلب أنها لا تعرف شيئا.

-إذا صادفته، تأكدي من أن تقولي له بأنني سأمر عليه غدا صباحا، و إني أعتمد عليه. يجب على أن أراه بالتأكيد.

غادرتها وعدت إلى سيارتي وأنا أجر قدمي.

توجهت نحو جبل "سكو وو"، شمال الجزيرة، دون حماس. يجب على ألا أتأخر إذا ما أردت أن أتسلقه صعودا ونزولا قبل حلول الليل.

بعد بضع كيلومترات، رأيت طفلا يسير على حافة الطريق. ثمان أو عشر سنوات، لا أعرف: لم أكن ماهرا أبدا في تقدير أعمار الأطفال. ما إن رأى سيارتي حتى توقف عن السير ورفع إبهامه. لم يكن لدي أي سبب يمنعني من أن أقله. صعد إلى جانبي بابتسامة متباهية.

-ما اسمك؟

" -كيتوت."

لم يكن هذا مفاجئا: لم يكن يوجد سوى أربع أسماء بالينية في الطائفة الأكثر شيوعا. عندما نلتقي شخصا لا نعرفه هناك إذن احتمال من أربعة أن يكون اسمه "كيتوت."

-ألا توجد دروس اليوم؟

-لا، ليس اليوم.

-هل أنت ذاهب إلى والديك؟

-والداي متوفيان.

ابتلعت لعابي، ثم سرعان ما لمت نفسي على حماقتي عندما رأيت أنه حافظ على ابتسامته.

-توفيا في حادث سيارة الأسبوع الماضي، قال موضحا وهو لا يزال يبتسم.

ارتبكت قليلا، مع أنني كنت أعرف أن علاقة البالينيين بالموت تختلف عن علاقتنا به. اعتقادهم بعودة الروح دفعهم لإعطائه معنى آخر مختلفا تماما عن المعنى الذي نعطيه له. بالنسبة لهم، هذا ليس أمرا محزنا. تأملت الطفل المبتسم، وللمرة الأولى، اعترفت لنفسي بأنني أود لو كنت بالينيا وأنتمي لحضارة تغرس في معتقدات إيجابية كهذه. للحظات طويلة تساءلت كيف كانت حياتي لتصبح إذا ما كان تصوري لموتي مختلفا.

وضعت الطفل في القرية التالية وواصلت طريقي.

لا وجود لغيمة واحدة كي تخفف من حدة الشمس.

بدا الصعود إلى قمة الجبل متعبا. بدأت فعلا أتساءل إن كنت سأجد الجرأة للقيام بذلك. لم تكن لدي الرغبة بصراحة، وعلى أي حال لم أر ما الفائدة التي ستعود إلي من وراء ذلك. لماذا عهد إلى بهذه المهمة؟ ما الهدف منها؟ ما علاقتها بالحوار الذي أجريناه، برغبتي في العيش بسعادة؟ لا علاقة لها. إذن، لماذا؟ ثم إنه لدي مهمة أخرى ذات صلة بالموضوع. تلك المهمة. من الأفضل أن أتفرغ لها.

كلما تقدمت نحو الجبل كلما وجدت أعذارا أخرى كي لا أتسلقه. لا يجب أن أكذب على نفسي، هكذا قال المعلم. حسن إذن، في الحقيقة لا رغبة لدي إطلاقا في تسلق الجبل. لم أكن في حاجة لأن أدعم قراري بأسباب عقلانية. سوف أقول الحقيقة للمعلم إذا. وإن كان من المفترض أن أكتشف شيئا في هذا المكان، سوف أكتفي بأن يخبرني إياها. أنا قادر على فهم ما يتم شرحه لي.

شعرت فجأة بالراحة لقراري، كأنني تحررت من وطأة جسم ثقيل. استدرت في التقاطع الموالي وملأت خزان سيارتي ونحو شاطئي!

وصلت هناك في نهاية الظهيرة. ركنت سيارتي وصادفت "كلوديا" عندما كنت أسير نحو كوخي.

-مرحبا "كلوديا". يوم جميل أليس كذلك؟

-أجل، الطقس رائع اليوم، سوف ندفع ثمن ذلك غدا، قالت مبتعدة.

العبارات الخالية من المعنى التي تقبلتها دائما دون أن أفكر فيها بدأت تدغدغ سمعي. عالم: كلوديا" كان أقرب إلى التعاسة، والأشياء الجيدة فيه كانت إذا زائفة. ربما تعتقد أنها لا تستحقها، وعندما تظهر أمامها إحداها، تنظر "كلوديا" أن تدفع ثمنها عاجلا أم آجلا.

تسلحت بدفتر وبقلم، وجلست على الرمال، مستندا بظهري إلى جذع نخلة، مغتنما ظلها الخفيف. كان الشاطئ خاليا، كان هنالك مركب صيد في عرض البحر، الدال الوحيد على وجود بشري بيني وبين الأفق.

بدأت بتدوين كل ما خطر ببالي البارحة في المطعم. خيل إلى أنني أكتب وصية سعادتي. إذا ما مت- سوف يقرأ ورثتي عن الحياة التي رغبت بعيشها.

ما الذي يمنعني من عيش هذه الحياة المشتهاة؟ صعب أن أجيب بطريقة شاملة. يجب على أن أغوص في التفاصيل. تذكرت النقاط التي قمت بإثارتها واحدة تلو الأخرى، وللأسف كان من السهل أن أجد الأسباب التي تمنعني من تحقيق أحلامي، مشاريعي، أفكاري وفي النهاية ولوجي لعالم السعادة.

قضيت ما يقارب الساعة وأنا أكتب، كان حزينا أن أراقب فيما بعد الليل الذي يسقط فوق البحر. مثل كل شخص، عشت أوقاتا سعيدة، لكن كان لدي شعور بأنني لم أخلق لأعيش سعادة مطلقة. ربما كانت السعادة حكرا على بعض الأشخاص، بعض المختارين الذين لم أكن من ضمنهم.

حان وقت سباحتي الليلية، سبحت بصمت لوقت طويل، طويل جدا.

12

استيقاظي المبكر صباحا سوف ينتهي بأن يصبح عادة لدي.

كنت أرغب بشدة في رؤية المعلم اليوم، كنت أشعر ببعض القلق بسبب غيابه البارحة. جهزت نفسي على عجل وقفزت إلى سيارتي دون أن أنسى أخذ الملاحظات التي دونتها. زدت في سرعة سيارتي وفكرت باستمتاع في دهس واحد أو اثنين من المارة كي أهب لهما فرصة العودة من جديد أبكر مما كان متوقعا.

شعرت بالراحة لدى سماعي المرأة التي حضرت لاستقبالي في مدخل المنزل تقول "اتبعني من فضلك". استرخيت واستنشقت الهواء المعطر للحديقة، وببهجة صادقة حييت المعلم "سامتينغ" عندما التحق بي.

-كنت محبطا للغاية لعدم التمكن من رؤيتك بالأمس، اعترفت له.

-هل أحرزت تقدما في تفكيرك حول حياتك؟

-أجل.

-أترى: لست في حاجة إلي لدرجة كبيرة، قال مبتسما.

جلسنا على الأرض، فوق الحصيرة، كالعادة.

-إذن، هل وجدت معلومات مهمة حول الأدوية الوهمية؟ سألني.

-أجل، و ما قرأته قد أّذهلني، قلت له. حدثته عن نتائج بحثي البارحة في فندق "امنكيلا:"

-ظننت أنني سأجد أدلة على تأثير الأدوية الوهمية على الآلام التي يلعب الجانب النفسي بها دورا مهما، مثل مشاكل النوم، مثلا. لكنني تفاجأت فعلا عندما اكتشفت تأثيره على الأمراض ال-"عضوية"، وحتى التأثيرات التي يمكن أن يسببها للجسم. هذا مثير للإعجاب، قلت له.

-نعم، هذا صحيح.

-قلت لنفسي أنه أمر مؤسف أننا لا نجري أبحاث إضافية لإيجاد طرق علاج تعتمد على قوة الإيمان لعلاج البشر.

-أجل، خاصة أن هذه الطريقة ليست حديثة: منذ ألفي سنة قام يسوع المسيح باستعمالها.

-أستمحيك عذرا؟

-لا نتحدث أبدا عن هذا الموضوع، لكن يسوع كان يعتمد على إيمان الأشخاص ليعالجهم.

-هل هذه مزحة؟ هل تنوي كتابة الجزء الثاني من "شفرة دي فينشي"؟

دون أن يعلق، انحنى فوق الصندوق الصغير المصنوع من خشب الكافور، لاستغرابي، أخرج منه كتاب إنجيل.

-أنت مسيحي؟!

-لا، لكن هذا ليس سببا يمنعني من الاهتمام بالإنجيل.

تصفحه بهدوء، ثم قرأ على مسامعي مقطعا.

-يسوع يجيب مكفوفين كانوا يترجونه ليعالجهم (إنجيل متى،9،28): "قال لهم يسوع: هل تعتقدون أنني قادر على فعل هذا؟ أجابوه: أجل يا معلمنا. فقام بتمرير يده على أعينهم قائلا: ليكن لكم ما آمنتم به"

-هل قال هذا فعلا؟

-اقرأ بنفسك، قال ومد لي الإنجيل المفتوح. لاحظ أنه لم يقل: "أنا يسوع العظيم، أمتلك القوة لجعلكم تشفون" لا، سألهم إن كانوا يؤمنون بقدرته على القيام بذلك، ثم قال لهم أنهم سيحصلون على ما آمنوا به. هذا مختلف تماما.

لم أعقب على كلامه. قرأت بسرعة هذا المقطع من "تفسير متى". هذا مذهل. كيف تمكن يسوع من معرفة ما لا يعرفه تقريبا أي شخص في القرن الحادي والعشرين؟ كيف تمكن من فهم أعماق النفس البشرية؟ على أن أعترف بأنني كنت مضطربا من الذي اكتشفته للتو.

أخرجني صوت المعلم من ذهولي.

-هناك باحث أمريكي أجرى مؤخرا بحثا حول نجاعة كل أساليب العلاج المعتمدة في عصرنا لعلاج مرض السرطان. ارتكز في عمله على نتائج سجلت عند مجموعة من المرضى. هذه النتائج كانت متفاوتة جدا، دفعه هذا للمضي قدما في بحثه. انتهى أخيرا إلى أنه في هذه المجموعة، المرضى الذين شفوا عولجوا

بأساليب مختلفة، لكن في النهاية، كان هنالك شيء مشترك جمع بين كل هؤلاء المرضى.

-ما هو؟

-كل الذين شفوا من المرض، كانوا على يقين مطلق بأن العلاج الذي يتبعونه سوف يشفيهم. كانت لديهم ثقة تامة في أطبائهم وفي اختياراتهم للعلاج. بالنسبة لهم، الشفاء ينبع من الداخل.

-إذن، ليس مهما نوع العلاج، المهم هو أن نؤمن به؟

-تقريبا.

-هذا جنون. السرطان ليس مرضا نفسيا. ونستطيع التحقق من إصابتنا به بوسائل محسوسة.

-لا نعرف إلى حد الآن كل الأسباب المسببة لهذا المرض. هناك بالطبع عامل وراثي، أسباب تتعلق بالمحيط، التلوث، النظام الغذائي، إلخ. لكن في بعض الحالات، من المحتمل وجود بعد نفسي غير معروف بطريقة جيدة.

-كيف؟

-منذ سنوات، حدث أمر محير لم نستطع تفسيره.

-ما هو؟

-كانت هناك امرأة تشكو من أعراض سرطان الدم، "لوكيميا"، قصدت قسم الإسعاف في أحد المستشفيات الأمريكية. قاموا على الفور بأخذ عينة من

دمها لتحليلها، طابقت هذه العينة التركيبة الدموية لمرض اللوكيميا. في هذه الحالة نظام المستشفى يفرض إجراء تحليل عينة ثانية لتأكيد النتيجة المتحصل عليها. لكن العينة الثانية طابقت تركيبة دموية عادية. لدهشتهم، طلب الأطباء أخذ عينة أخرى من دم المرأة. وهنا، كانت النتائج مطابقة للعينة الأولى، أي الموافقة للوكيميا. ظن الأطباء حصول خطأ ما أثناء إجراء تحليل العينة الثانية وأن نتائجها خاطئة. كي يتأكدوا بشكل قاطع، طلبوا تحليل عينة رابعة من الدم. إلا أن النتائج كانت مطابقة للعينة الثانية. شعروا بالذهول وبالارتباك. علموا لاحقا أن المريضة تعاني أيضا من ازدواجية في الشخصية. كانت قادرة على تغيير شخصيتها كل لحظة. وهذا التغيير كان يحدث بين كل عينة دم وأخرى.. إحدى الشخصيتين كانت مصابة بسرطان الدم، أما الأخرى فلا.

-لكنها نفس المرأة !

-أجل.

-هذا مثير للدهشة!

-إنه لغز. لم نتمكن أبدا من شرحه.

كنت مذهولا، ومرة أخرى متحمسا لفكرة توجيه الأبحاث في هذا الاتجاه، سوف نفتح آفاقا جديدة في ميدان الطب.

-كي نغلق موضوع الصحة، قال لي، يجب أن تعلم أن الأشخاص الذي يؤمنون بوجود الله و يمارسون شعائرهم الدينية مهما كانت، بطريقة منتظمة، أمل الحياة لديهم يكون يفوق النسبة التي لدى غيرهم ب- 29%

-هل تعرف، لم يعد شيء يثير استغرابي الآن!

-مثلما قلت لك المرة الفارطة، لا نستطيع أن نحكم على مدى صحة المعتقدات، لكننا نستطيع أن ندرس تأثيراتها. كما يحدث مع الله، لا أحد يستطيع إثبات وجوده، لكننا نعرف أن أحد تأثيرات الإيمان به هي زيادة أمل الحياة.

-أوه حسن، ربما سأعود إلى الكنيسة يوم الأحد!

-لست متأكدا أن ذلك سيكون له تأثير: الإيمان هو الذي يهم، و ليس التصرفات، مع أنه، والكهنة يعلمون ذلك جيدا، الطقوس الشعائرية تحافظ على الإيمان. على فكرة، ما هذه المدلاة التي ترتديها؟

-هذه؟ قلت مشيرا إلى الصليب الصغير الهوغونوتي المعلق حول رقبتي.

-أجل.

-قدمها لي أبي عندما كان لا يزال على قيد الحياة "كي تجلب لي الحظ". قال لي. أنا متعلق بها كثيرا لأنها هدية منه.

-الكثير من الأشخاص يؤمنون بقلاداتهم الجالبة للحظ حتى أنهم يرفضون الخروج من دونها. في الواقع، أنا لا أنصح بهذا..

اليوم أيضا، قدم لي الطعام اللزج. راقبت المرأة الشابة تجلب الطبق، بابتسامة صفراء، مفكرا كيف سأخلص نفسي من هذا الوضع دون أن أحرج أحدا.

-هذا لطف منك أن تقدمي لي الطعام، لكنني لا أرغب في الإساءة إلى حسن ضيافتك.

-شرف لنا أن نقدم لك هذا، هكذا أجابتني، لسوء حظي.

شعرت أنني مجبر على القبول.

-حسن، سأتناول القليل فقط، لأنني أفرطت في الأكل هذا الصباح.

قدمت لي طبقا، وآخر للمعلم "سامتينغ"، ثم اختفت. لاحظ هذا الأخير إحراجي وابتسم ابتسامة واسعة. كان مستمتعا كثيرا.

-لماذا كذبت مرة أخرى؟

لم أكن لأنكر وأواصل كذبتي. في الواقع، هذا لا يفيد بشيء: هذا الرجل يقرأ أفكاري.

-كي لا أجرحك بقولي إنني لا أحب طعامكم وأكره الأكل على الطريقة البالينية الذي يجعل الأصابع لزجة.

-إذا لم أتفهم هذا، وإذا آذاني كلامك، هذه مشكلتي وليست مشكلتك.

-عفوا؟!

-ليس مضمون الكلام ما يجرح، بل طريقة قوله، طريقة إيصاله. إذا ما صغناه بطريقة جيدة، مثلا ونحن نشكر الآخر على نواياه الطيبة، لن نجرحه. وإلا أن كان هو شديد الحساسية، إذن بطريقة ما هذه مشكلته هو وليست مشكلتك.

-هل تعرف، أعتقد أنني قمت بهذا لأنه أسهل من شرح الحقيقة.

-هنا، أنت تخدع نفسك. عندما لا تقول الحقيقة للآخرين، تمنحهم الفرصة لاستغلال ذرائعك، هذا سوف يدفعك للكذب من جديد. في الواقع هذا ما حصل. في نهاية المطاف سوف تجد نفسك تقوم بأشياء لا ترغب بها، مثل تناول طبق لا تحبه.. أنت إذن أخطأت مرتين.

-مرتين؟

-أجل، لأن الكذب قبل كل شيء أمر غير مفيد لك. يقوم بنشر طاقة سلبية تجمعها بداخلك. جرب قول الحقيقة: سوف ترى، إنه أمر محرر، وستشعر بالخفة في مرة واحدة.

الخفة كلمة مقنعة، أمر مرغوب فيه عندما تتصارع مع فطائر متخمة.

-في ما يتعلق بالصدق، لم أتبع تعليماتك بالأمس: لم أتسلق جبل "سكو وو."

-لست متفاجئا.

-لم تكن لدي رغبة، لذلك لم أتسلقه.

-وأي تأثير يحدثه هذا، قولك للحقيقة ببساطة أقصد؟

أعترف أن هذا جميل. إنه إحساس ناعم.

-هذا أفضل. هل أنجزت بقية المهام التي طلبتها منك؟

-أجل، وضعت على الورق رؤيتي لحياة مثالية، ثم دونت كل ما يمنعني من تحقيقها.

أخرجت ملاحظاتي وقرأت له كيف وصفت الحياة التي أحلم بها. أنصت لي في صمت، كان من الرائع أن تشعر بشخص يبدي انتباها لرغباتك، دون أن يعلق عليها، دون أن يتدخل ليردعك، أو ليقترح عليك أشياء أخرى أفضل حسب رأيه. لطالما أنصت إلى مخربي الأحلام، هؤلاء الذين يقولون لك: "لو كنت مكانك، كنت لأقوم ب-..."، أو الأسوأ من ذلك، هؤلاء الذين يتوقعون نتائج سيئة من أفكارك: "إذا فعلت هذا، سوف يحصل"..

عندما أكملت القراءة، سألني ببساطة بعد قليل من الصمت:

-كيف عرفت أن هذه الحياة ستجعلك سعيدا؟

-أشعر بذلك بقوة. تخيلتها عديد المرات، وكل مرة كنت أشعر بنفس الإحساس، نفس الرضا. بالأخص عندما أتخيل نفسي أعيش على هذا الشكل، لا تظل لدي أي رغبات أخرى.

-وعندما ترى نفسك تعيش هذه الحياة، هل توجد أشياء من الممكن أن تخسرها بالنسبة لوضعك الحالي؟

-لا شيء، بكل تأكيد، لا شيء.

-ممتاز. قبل أن نتعرض إلى التفاصيل، أرغب فقط في معرفة موقفك من السبب الذي جعلك تعيش حياتك هذه بدل التي قمت بوصفها. ما الذي جعل طريقك يختلف عن الذي أردت اتباعه؟

-أعتقد أنني لا أتمتع بحظ كبير عموما. كي تنجح في حياتك، تحتاج إلى الحظ، ولست شخصا محظوظا جدا..

-كنت تقول، منذ قليل، أنك لست متدينا، قال ضاحكا، لكن يبدو أنك تؤمن بالخرافات! أنا لا أومن بالحظ. أومن بأن كل واحد منا يصادف في حياته عددا من الفرص من كل الأصناف، وأن البعض يحسن استغلالها، والبعض الآخر لا.

-ربما.

هناك تجربة طريفة، حدثت في أوروبا مؤخرا، إن كانت ذاكرتي جيدة. تقوم على إخضاع مجموعة من المتطوعين إلى اختبار، البعض منهم يقولون إنهم محظوظون والبعض لا. قدمت لكل منهم صحيفة وطلب منهم أن يعدوا الصور المنشورة بداخلها. بعد بضع صفحات، ظهرت نشرة وسط الصحيفة تقول بخط كبير: "لا داعي لأن تواصل العد: هناك 46 صورة في الصحيفة" الأشخاص الذين يتصورون أنهن محظوظون توقفوا عن العد عن قراءة هذه الرسالة. أغلقوا الصحيفة وقالوا للباحث: "هناك 46 صورة." حسب رأيك، ماذا فعل الأشخاص الذين قالوا بأنهم غير محظوظين؟

-لا أعرف. أظن أنهم اعتقدوا أنه فخ، وواصلوا العد إلى النهاية كي يتأكدوا، قبل أن يقدموا النتيجة التي حصلوا عليها؟

-لا. صحيح أنهم واصلوا العد إلى نهاية الصحيفة، لكن عندما سألوا لماذا لم يهتموا بالإشارة كانت إجابتهم واحدة: "إشارة؟ أية إشارة؟" لم يرها أي منهم!

-هذا مثير للاهتمام في الواقع.

-أجل، أنا متأكد أنك محظوظ مثل أي شخص آخر، لكنك ربما لا تنتبه للفرص التي تصادفك.

-هذا ممكن.

تساءلت حول الفرص التي أهدرتها في حياتي، وكيف كانت الأمور لتجري لو أنني انتبهت لها واغتنمتها.

-حسن، الآن، لنحدد الأقسام المختلفة لحلمك.

-العنصر الأساسي هو أن أفتتح لنفسي ستوديو تصوير فوتوغرافي خاص بحفلات الزفاف.

-ممتاز، أخبرني إذن: ما الذي يمنعك؟

-في الحقيقة، أشك في قدرتي على القيام بذلك، مع أن هذا المشروع يجذبني جدا.

-كيف عرفت أنك لن تكون قادرا على إنجازه؟

-أشعر بذلك: إنه يختلف تماما عن مهنتي الحالية، عما اعتدت على القيام به. ربما هذا مهم جدا كتغيير ولن أستطيع إنجازه.

-إذا ما ارتكزت في تحليلك على الأحاسيس وحسب، إذن أنت لا تستطيع أن تعرف إن كان هذا حقيقيا أو مجرد تصور محدود للأمور.

-ربما.

-هل تعرف كيف نجعل أنفسنا نصدق أننا لسنا قادرين على القيام بشيء ما؟

-لا.

-عندما يكون هناك سؤال، غالبا غير مصاغ جيدا، ولا نملك إجابة له.

-لا أفهمك.

-مثال: إذا لا تستطيع الإجابة على السؤال "كيف سأتمكن من إنجاز هذا المشروع؟"، هناك احتمال أن تفكر "لست قادرا على هذا"، والذي هو محض تصور محدود. إذن، سأطرح عليك السؤال التالي: ماذا ستفعل كي تجعل مشروعك يرى النور؟

-لا أعرف.

-هل ترى! بما أنك لم تجب على هذا السؤال، سوف تشعر بأنك غير قادر على تحقيق حلمك.

-لقد فهمت.

-كي تجيب عليه، عليك أن تغوص أكثر في التفاصيل، لأنك ما دمت تحتفظ بفكرة شاملة عن المشروع، سوف تراه على أنه فكرة عويصة، إذن صعبة التحقيق.

-هذا صحيح، لدي أحاسيس لكن ليس لدي مخطط دقيق للعمل. أحاسيس إيجابية عندما أفكر في النتيجة، سلبية عندما أفكر في المضي نحو العمل..

-هذا هو. سوف تفك غموض هذا المشروع عندما تحدد بدقة كل ما عليك فعله لإنجازه، ثم ستدون بجانب كل مرحلة الأشياء التي تجيدها والأخرى التي لا تجيدها إلى حد الآن. سيكون كافيا فيما بعد أن تجد طريقة لتعلم المهارات التي تنقصك.

-هناك العديد من الأشياء علي أن أتعلمها والتي أجهلها حاليا، مثلا، أن أتعلم إدارة ما هو، بطريقة ما، مؤسسة صغيرة، أو المهارات التجارية، بما أنه يجب أن أجعل نفسي معروفا في الوسط وأن أبيع خدماتي. الممل هنا هو أنني لن أملك لا الوقت ولا الموارد المالية لأخذ دورات تدريبية.

-حسن، تستطيع الاستعانة بقدراتك الإبداعية: ليس من الضروري أن تأخذ دورات تدريبية دائما كي تتعلم شيئا ما! هل هناك مثلا في محيطك أشخاص من المحتمل أنهم يملكون المهارات التي تنقصك وبإمكانهم تلقينك إياها؟

-مديري في العمل يملك البعض، لكن من المستحيل أن أحدثه عن هذا.

-من غيره إذن؟

-مديري السابق، في المكان الذي كنت أدرس قبل.

-ممتاز، سوف تتمكن من طلب مساعدته.

-لا.

-ما المانع؟

-لا أشعر بذلك.

-لماذا؟

-لا أعرف، لا أريد أن أزعجه بشؤوني.

-كيف عرفت أنه سينزعج؟ سألني المعلم، مستغربا، وكأنني أخبرته للتو أنني عراف قادر على معرفة ما يفكر به الآخرون مسبقا.

-بدون شك لن يرغب في هدر وقته في مساعدة شخص ليس على علاقة وطيدة معه أو ليس من أقربائه.

-إن كنت أنت مكانه، ألن تقوم بمساعدة شخص طلب نصيحة تتعلق بمهنتك؟

-أجل، أجل، بالطبع.

نظر إلي في عيني.

-مما تخاف إذن؟ سألني بنعومة لا متناهية.

شعرت مرة أخرى أنه وضع إصبعه على المكان الصحيح، حتى أنه لا يحتاج للضغط بقوة أكبر ليحدث تأثيرا. كلمة "خوف" كان لها وقع خاص على مسامعي. للحظات رنت الكلمة كالجرس داخل قفصي الصدري، جرس ظل رنينه ينزل بعمق في دوائر داخل نفسي. الذي طفا على السطح بدا لي كأنه حقيقة.

-أخشى أن يردعني، لذلك أفضل أن لا أقوم بالمخاطرة.

لم أفكر بشيء سوى هذا، شعرت بالخجل الذي سيتملكني إذا ما طردني مديري السابق.

-خوفك هذا صادر عن التباس، يتأرجح بين رفض للطلب ورفض للشخص. رفض التماس منك لا يعني أننا لا نحبك أو لا نقدرك.

-ربما.

-من جهة أخرى، أنت لا تعرف أبدا إن كان ردة فعله ستكون سلبية. لا نستطيع أن نجيب عوضا عن الآخرين. عندما تطرح السؤال، وقتها فقط سوف تعرف.

-دون شك لست ماسوشيا لدرجة كبيرة.

-معظم مخاوفنا هي من اختراع أذهاننا. ربما لا تفهم هذا، لكن الالتفات نحو الآخر لطلب المساعدة هو من طبيعة البشر. كل البشر الذين ينجحون في حياتهم يمتلكون هذه الصفة.

-ربما لدي صفات أخرى تعوض التي ليست لدي.

-عليك حتما أن تمتلكها. لا نستطيع فعل الكثير في الحياة إذا لم نستعن بالآخرين ولم نطلب منهم معروفا، دفعا نحتاجه، مساعدة، نصيحة، معارف لهم. قبل أن نفترق، لدي لك مهمة كي تتقدم في هذا الموضوع.

وافقت آملا ألا يطلب مني مجددا تسلق جبال أخرى أو شق عرض البحر وسط أسماك القرش.

-بخصوص ما علي أن أتعلمه لإنجاز مشروعي، هناك أمر يمكن أن يسبب لي مشكلة.

-ما هو؟

-من المستحيل أن أهتم بالستوديو وحدي، خصوصا عندما أكون في ساحة العمل، لن يظل هناك أحد ليستقبل الزبائن ويجيب على الاتصالات. على إذن أن أوظف شخصا أو اثنين. هذه هي المشكلة.

-ماذا تقصد؟

-في الحقيقة، إن كان هناك شيء لا أجيده أبدا فهو بث الحماس في الآخرين.

-كيف عرفت هذا؟ سألني المعلم باستمتاع.

-اضطر مديري للتغيب عن العمل في إحدى المرات، وطلب مني أن أحل محله إذا ما اقتضت الحاجة. وما جرى بعدها بدا وكأنه حصل عمدا. توعك أحد زملائي في العمل، وكان على أن أقسم طلابه على بقية الصفوف. لكن كان لكل صف أوقات محددة، وكان يجب على الطلاب الذي سأوزعهم على المدرسين أن يبقوا في صفهم حتى الوقت المحدد. اعترض بعض المدرسين، رفضوا أن يدرسوا ساعات إضافية لم يتم إعلامهم بها مسبقا. حاولت أن أتفاوض مع كل واحد منهم دون فائدة. انتهى الأمر بكابوس: انتهيت بجمع كل الطلاب في صفي، والذي كان صغيرا للغاية لاستقبال هذا العدد الكبير. بدأ البعض في البكاء. لم أعد أستطيع السيطرة على الوضع وأفلتت الأمور من يدي. في الغد،

كان الازدراء واضحا على وجه مديري. قلت لنفسي أنني لن أقوم أبدا بتحفيز الآخرين.

-واجهت صعوبات لمرة واحدة في هذا المجال فانتهيت إلى أنك لم تخلق للقيام بذلك؟

-لم تكن صعوبات: كان فشلا.

-لم تحاول أن تجرب من جديد؟

-حميت نفسي من ذلك.

-ألم ترى في حياتك طفلا يتعلم المشي؟

-أشكرك على المقارنة.

-لدى الأطفال أشياء عديدة لنتعلمها منهم. تأمل طفلا يتعلم المشي: هل تظن أنه سينجح من المرة الأولى؟ يحاول أن يقف وهوب! يسقط. هذا فشل ذريع، ورغم ذلك يقوم بمحاولة أخرى فورا. يقف من جديد ويسقط! يسقط الطفل بمعدل ألفي مرة قبل أن يتقن المشي.

ابتسم ثم أضاف:

-لو كان كل الأطفال مثلك، لامتلأت المدن بأشخاص يحبون على أربع.

-باختصار، أنت تقول لي أنني مرة أخرى هزمت من قبل فكرة محدودة مرتكزة على أمر فاشل قمت به.

-أجل، وعليك حتما أن تأخذ دورة تدريبية في إدارة الأعمال.

-مثلما قلت لك، هذا يتطلب وقتا ونقودا، وليس لدي لا هذا ولا ذاك بوفرة.

-لا أعتقد أن هذا يتطلب أكثر ما تتطلبه إجازة في "بالي."

-لا أحب العبث بإجازاتي ولا بنهايات الأسبوع. العطل بالنسبة لي مقدسة.

-يعود إليك أن تقرر ما الأهم بالنسبة لك: تحقيق حلمك، أو الاستمتاع بإجازاتك، قال لي بنبرة محايدة تماما جعلتني حرا في اتخاذ قراري.

-أريد تحقيق حلمي، لكن سيكون لدي مشكلة في تمضية الإجازات!

-قلت أن تحقيق حلمك سيجعلك سعيدا. هل تجعلك الإجازات كذلك؟

-هذا كثير. لنقل إنها تجعلني أستمتع، وأنا متعلق بها.

-هناك ظروف تدفعنا للقيام باختيارات، يعني لرفض أشياء نريدها كي نمر إلى أخرى أقرب إلى قلوبنا، قال ببساطة شديدة.

-أمقت التخلي عن أي شيء كان.

إذا لم تتخلى عن الأشياء، ستتخلى عن الاختيار. وعندما نتخلى عن الاختيار، نتخلى عي الحياة التي نود عيشها.

قال هذا بهدوء، بنظرة مليئة بالطيبة. أنا الذي لطالما تجنبت القيام بالاختيارات وأجنب نفسي مشقة ذلك، شعرت بأنني ساهمت في جعل نفسي تعيسا.

-افهمني جيدا، واصل المعلم، لست بصدد إقناعك بأن لا تأخذ المزيد من الإجازات- أريدك فقط أن تعي أننا لا نستطيع تحقيق أحلامنا ما لم نبذل جهدا، وبعض التضحيات إذا اقتضى الأمر.

بدا هذا فعلا ذو معنى جيد، مع ذلك لا نستطيع بمجرد أخذنا للقرار، أن نصبح قادرين على بذل الجهد والقيام بالتضحيات.. كان لدي شعور بأن بعض الأشخاص ولدوا هكذا، مؤهلين لفعل هذا. كان من الواضح أنها لم تكن حالتي.

-أن تتبع طريقك حتى تستطيع فيما بعد تحقيق الكثير، يشبه أحيانا تسلق الجبال: بما أننا لم نقم بذلك، فنحن نجهل أن الجهد الذي يتطلبه الأمر يساوي الشعور بالرضا الذي نحسه لدى وصولنا. كلما ما كبر الجهد المبذول، كلما ازدادت السعادة التي سنحسها قوة، وكلما ازداد تأثيرها بنا.

فهمت الرسالة جيدا. ووصلني تعليقه بطريقة مبطنة عن عدم تسلقي ذلك الجبل.

-علي أن أجد طريقة ما، قال وكأنه يحدث نفسه، حتى أجعلك تقدر الاختيارات، العمل والتضحية.

كنت محظوظا لاهتمام هذا الرجل بي لدرجة تفكيره في طرق تجعلني أفهم نقائصي تجاه مسؤولياتي، وهذا لكي أتكمن رغم كل شيء من تعلم ما يجب على أن أتعلمه!

-سوف نركز على هذا اليوم، واصل قائلا، لكن من الآن وحتى الغد، أريدك أن تركز أفكارك على الأشهر القادمة، متخيلا أنك أتممت تعلم كل الكفاءات التي تنقصك حاليا. أريدك أن تتخيل نفسك مكان أحد المصورين الفوتوغرافيين، وأن تقول لي بماذا شعرت.

-حسنا.

-شيء أخير: أخبرتك بأنني سأوكل إليك مهمة، حتى تتخلص من هذا الخوف من طلب المساعدة من الآخرين، هذا الخوف من أن يتم رفضك.

-أجل.

-حسن، تفضل: سوف نرى بعضنا غدا، ومنذ الآن سوف تتوجه نحو أشخاص من اختيارك وتطلب منهم أشياء، مهما كانت، لكن لديك هدف لتحققه.

-أي هدف؟

-أن تتلقى ردا سلبيا من طرفهم.

-عفوا؟

-لقد سمعتني جيدا: عليك أن تجعل الأشخاص الذين ستطلب منهم معروفا يرفضون طلبك. بشكل أكثر دقة، عليك أن تجعلهم يقولون لك بكل وضوح "لا". عليهم أن يقولوا هذه الكلمة. مهمتك هي الحصول على خمسة "لا" أمامك وقت حتى الغد.

-لن يكون هذا صعبا للغاية.

-إذن استمتع جيدا. أنتظرك هنا صباح الغد، قال وأبدى حركة دالة على رغبته في المغادرة.

-هناك شيء آخر: سوف أغادر "بالي" يوم السبت كي أعود إلى دياري.

-مبكرا؟ خططت لأن نرى بعضنا ثلاث أو أربع مرات أخرى.

-هذا ممكن غدا ويوم الجمعة، لكن يوم السبت، طائرتي تقلع بعد الظهر. هل نستطيع أن نلتقي صباحا؟

-يوم السبت، لست متاحا في الصباح.

-للأسف. لا يوجد حظ!

-إذا ترغب في أن نلتقي لمرة أخيرة يوم السبت، يكفي أن تغير تذكرة طائرتك وتعود لديارك يوم الأحد! قال هذا وكأنه من تحصيل الحاصل.

-الأمور ليست بهذه البساطة: نوع التذكرة التي لدي يحتاج مبلغا كبيرا من المال كي أستطيع تغيير تاريخها. ثم إنني أعود للعمل يوم الاثنين. الرحلة طويلة جدا حتى أنني سأضطر للذهاب للصف مباشرة من المطار. أفضل أن أتجنب..

-سوف نرى غدا إن كان لا تزال أمامك أشياء مهمة لتكتشفها وإن كان من الضروري فعلا أن نلتقي يوم السبت.

13

تنبهت فجأة للوقت القليل الذي لا يزال أمامي قبل الرحيل، ورغبت في مباشرة العمل فورا. فهمت خلال هذه الحصة أن المهام الموكلة إلي بين كل لقاء وآخر لم تكن دون فائدة، ورغبت الآن من كل قلبي أن أتمم المهام التي أملاها على اليوم.

لم أكن متحمسا أبدا لفكرة القيام بما أمقته: أن أتوجه نحو الآخرين وأطلب منهم معروفا، لكن ما سيحدثه هذا في نهاية المطاف أثار فضولي بما أنني كنت مقتنعا بأن كل ما يقوم به المعلم يحمل معنى ما.

ذهبت إلى "آبود"، بما أنني أحتاج مكانا يمكنني أن أجد فيه أناسا من الغرب، لا فائدة ترجى من طلبي للمساعدة من أحد البالينيين: هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون قول "لا."

بماذا على أن أبدأ؟ علي أن أقوم بصياغة طلبات بطريقة تجعلها مرفوضة. باختصار، علي أن أجهز نفسي لأنتهي إلى النتيجة التي، عادة، أبذل عناية كبيرة كي أتجنبها. كنت إذن سأسمع خمس مرات تكرار كلمة "لا" دون ذكر رفض الأشخاص لي. عظيم.

كان الطريق الرئيسي مفعما بالحركة خلال الظهيرة. ممتاز: سوف أخفي بسهولة إخفاقاتي المتتالية.

-تاكسي! تاكسي!

كان البالينيون يصرخون في السياح في كل مكان تقريبا.

توجه واحد منهم نحوي.

-لا أملك نقودا: هل تستطيع أن تقلني إلى "كوتا" مجانا؟ تقدمت نحوه ضاحكا.

-هذا بخمسين ألف روبية، سوف تدفع في طريق العودة، قال لي بابتسامة عريضة.

-لا، لا أملك نقودا، هل تستطيع أن تقدم لي الخدمة مجانا؟

-حسن، أنت لطيف، سأجعلها ثلاثين ألف روبية من أجلك.

-لا، مجانا، مهداة .

-حسن لألفي روبية.

-لا، لا أستطيع.

-حسن، لنذهب إلى "كوتا"، وسوف نناقش السعر معا، سوف نتفق. هيا، اصعد!

-لا، ليس مهما، سأذهب إلى مكان آخر، شكرا. قل شعوري بالراحة شيئا فشيئا.

-هيا، اصعد، قلت لك أننا سوف نتفق!

-لا عليك، شكرا، شكرا جزيلا.

-هيا، تعال!

-لا، شكرا، غيرت رأيي، لم أعد أرغب في الذهاب إلى "كوتا". إلى اللقاء.

راقبني وأنا أبتعد، باستمتاع، لسان حاله يقول "كم هم غريبو الأطوار هؤلاء المغاربة"

حسن، محاولة فاشلة. سمعت جيدا خمسة "لا"، لكنني أنا من قلتها! لماذا قمت أصلا بالتحدث مع باليني في حين أنني قررت أنه سيكون دون جدوى؟ دون شك بسبب سهولته: الباليون لطفاء جدا، طيبون للغاية، ويجعلونني أشعر براحة أكثر من سكان بلدي والمشابهين لهم. على أن أعود إلى الواقع: كنت خائفا للغاية من أن أرفض لذلك فضلت أن أزيد صعوبة التمرين على أن أواجه خوفي. في النهاية، سأستجمع شجاعتي، أواجه رهبتي، أستقبل خمسة "لا" بسرعة وأذهب لأحتمي بشاطئي المنعزل .

نظرت حولي. كثر كان المارة الذين يسيرون على الأرصفة المستقيمة للشارع الرئيسي. كان بعضهم يخرج من معارض للفنون وآخرون يدخلون للمقاهي الجميلة بتصميمها الذي ما بعد الاستعمار مدروس بعناية من أجل المغاربة. كان الناس يسيرون بحذر كي لا يدوسوا على القرابين الموضوعة على الأرض.

يجب علي أن أشرع في العمل، وأن أكف عن طلب أشياء سخيفة من أي شخص. رأيت أمامي امرأة بدينة أمريكية شقراء، ترتدي تنورة فيروزية اللون

وقميصا زهريا مشرقا يبرز ظاهر ثدييها الكبيرين. خرجت من محل لبيع المثلجات وبيدها مخروط كبير مليء بالكريما المثلجة.

-مثلجاتك تبدو رائعة! قلت لها.

-طيب المذاق! أجابتني وعيناها تلمعان بشهية.

شفتاها الممتلئتان كانتا تلعقان المثلجات التي تجاوزت محيطهما.

-هل يمكن أن أتذوقها؟ أجبرت نفسي على أن أسألها.

-أوه، هكذا إذن، أنت وقح! قالت لي، عيناها تلمعان، مبتسمة بشراهة.

قرأت في عينيها أنها ستدعني أضع شفتي على المثلجات التي تلعقها سيكلفني تقبيلها من شفتيها.

-هل يعني هذا نعم أم لا؟

-بالطبع نعم يا عزيزي، أجابتني و اقتربت مني و نظرت إلي بشراهة.

-لا، كنت أمزح، كنت أمزح، قلت مجبرا نفسي على الضحك.

-لا تخف، تستطيع تذوقها. هيا.

-لا، شكرا، قلت هذا هكذا... دون سبب... هيا، إلى اللقاء، تذوقا طيبا لك!

تركتها مثبتة هناك، ذاهلة، وسط الرصيف، يدها جامدة كأنها تخشبت حول المخروط والمثلجات تسيل ببطء على أصابعها المنتفخة.

فشلت مرة أخرى. وبخسائر ضمنية. كنت أحمر كالفاوانيا، وشعرت بالسوء لأنني ربما جرحت شخصا ما. عجلت الخطى وانعطفت في أول طريق صادفني على اليسار. دست الأرض المنهزمة للحظات وجمعت أفكاري. تساءلت ماذا سيكون طلبي التالي عندما رأيت على بوابة خشبية لافتة تقول "برينغا جويتا". تقدمت ورأيت من خلال الأشجار الكثيفة الأكواخ القليلة لفندق مخفي تحت الأشجار. اقتربت عندما رأيت اثنين من السياح يصلان إلى البوابة.

-عذرا، قلت لهما، هل تنزلان هنا؟

-أجل.

-أنا أنزل شرق الجزيرة. تعطلت سيارتي للتو، لن يتم إصلاحها قبل الغد. ليس معي نقود كي أقضي الليلة في الفندق. أعرف أن طلبي غير ملائم، لكن هل تقبلان أن أقضي الليلة في غرفتكما؟ لا أريد قضاء الليل في الخارج.

تبادلا النظرات للحظة، متفاجئين، ثم قال واحد منهما:

-سيارتك معطلة؟

-أجل.

-ألم تطلب من الميكانيكي أن يستضيفك عنده؟

-لا.

-الناس يرحبون بالغرباء هنا، ربما سيستقبلك عنده أو عند أحد جيرانه. أود أن أستضيفك عندنا، لكن غرفتنا صغيرة للغاية. هل تريد أن أسأل إدارة

الفندق؟ نحن هنا منذ ثمانية أيام، بدأوا يعرفوننا بشكل جيد. أعرف أن كل غرفهم محجوزة لكن من الأكيد أنهم يعرفون شخصا يمكنه إيواء صديق حرفائهم.

-لا، سوف أحل الأمر بنفسي، شكرا، هذا لطيف للغاية.

-مثلما تريد.

-أشكرك رغم هذا.

-حظا جيدا.

-شكرا. إلى اللقاء.

يا إلاهي. ألا يستطيعون قول "لا" ببساطة؟ راقبتهما يختفيان في طرف الشارع، بدأت أشعر أن مهمتي ستكون أصعب مما تخيلت.

غادر سائح آخر الفندق في تلك اللحظة، وجهزت نفسي لأكرر طلبي، رؤية مشيته الشبيهة بمشية القطة، طراز ملابسه، نعومة ملامحه والقرط الذي في أذنه، أوقفت اندفاعي: خشيت أن يقبل اقتراحي..

عدت أدراجي إلى الطريق الرئيسية.

العديد من الأشخاص كالعادة. عليّ حتما أن أجد شيئا غريبا يجعل الناس مجبرين على الرفض. لنرى.. لنرى، لنرى.. المال. أجل، هذا هو، المال. ما أن نقترب من حافظات نقودهم حتى يأخذ الناس حذرهم ويصبحون جادين أكثر.

مررت أمام مدخل مركز البريد وتوجهت نحو أول شخص خرج منه. امرأة خمسينية، شعرها رمادي في تسريحة قصيرة للغاية، بطريقة رجولية، من النوع الواثق الذي لا يمانع في قول "لا": الضحية المثالية. أحببتها منذ الآن.

-اعذريني على إزعاجك، لكنني في حاجة لأن أجري اتصالا للخارج. ليس لدي نقود. هل تتفضلين بإعطائي خمسمائة روبية كي أستطيع استعمال كابينة الهاتف التي في مركز البريد؟

-ستجري اتصالا عاجلا؟ سألتني بنبرة مباشرة.

-أجل.

-ستتصل بأي بلد؟

نظرت إليَّ مباشرة في عيني عاقدة حاجبيها.

-الولايات المتحدة.

-سوف تتأخر على التليفون؟

شعرت أنني في استجواب بوليسي.

-أجل، خمس دقائق، ربما ستة.

-اتبعني إلى فندقي، أمرتني. إنه بالقرب من هنا. أنا، أستعمل كابينة الفندق بواسطة كارت مسبق الدفع يكلفني ثلاث مرات أقل. تستطيع أن تستعمله لثلاث دقائق فقط، لا أكثر.

-للأسف، هذا لن يكون كافيا. هل تقبلين أن أستعمله لست دقائق؟

لم أعد أعرف نفسي. لم أكن أجرؤ على طلب هذا في السابق، بالأخص من سيدة طيبة لدرجة منح ثلاث دقائق من كارتها الهاتفي لمساعدة مجهول...

-أنا متأكدة من أنك تستطيع إنهاء حديثك في ثلاث دقائق، هيا! قالت وقادتني معها. سوف تتعلم أن تذهب نحو الأمور الهامة. هذا ضروري جدا في الحياة!

بإصرار، الجميع يريدون إسداء النصائح لي فيما يتعلق بحياتي.

-لا، لكن. لا أريد إزعاجك بالذهاب إلى فندقك. لا تهتمي لهذا، سوف أجد حلا.

-هذا لا يزعجني، أكدت لي، بنبرة فوقية، مواصلة سيرها مشيرة نحو الطريق.

-لكن سوف تحتاجين الكارت دون شك. لا أريد أن أستهلك رصيدك الهاتفي.

-هيا، كف عن طرح أسئلة ميتافيزيقية. إن كان هذا يسبب مشكلة لي، لما اقترحت عليك الأمر.

بعد مضي عشر دقائق، اتصلت برقمي الخاص في المنزل، كي أتحدث بنبرة مستعجلة مع مجيبي الآلي. أغلقت الخط خلال دقيقتين.

-كنت على حق: دقيقتان كانتا كافيتين.

-ممتاز! حسن، هل عالجت مشكلتك؟ سألتني كأنها مراقب الأعمال المنتهية.

-أجل، لا أعرف كيف سأشكرك.

-في هذه الحالة، لا تشكرني!

-حسن. وداعا، أتمنى لك إجازة سعيدة!

-وداعا وتذكر: في الحياة، عليك أن تتعلم أن تسير مباشرة نحو الهدف!

راقبتني أبتعد وعندما التفت بعد أن صرت بعيدا عنها مسافة عشر أمتار، ابتسمت لي، من الجلي أنها كانت مسرورة من نفسها.. وبعيدة تماما من أن تشك أنها تصرفت بشكل معاكس لما ظننت.

دخلت منهزما إلى أول مقهى صادفني كي أنعش نفسي. حسب هذا النسق، سأحتاج أسبوعا كاملا كي أجمع الخمسة "لا" خاصتي. هذا محبط. عندما تجاوزت الباب، تناقض هدوء الـ "يوغي" فجأة مع الضجر الذي أشعر به ولفني فورا بنوع من السكينة. كانت الإنارة مخففة بواسطة مظلات فينيقية من الخشب، المقاعد منخفضة، الطاولات أيضا، موسيقى "شعبان يحيى" تنبعث في الأرجاء بصوت خافت، الحرفاء يتحدثون بصوت غير مسموع: المكان المثالي لأستريح فيه عدة دقائق وأستجمع قواي. طلبت شايا مثلجا وجلست فوق أحد المقاعد، تاركا الضغط المتجمع ينزاح من فوقي. أغمضت عيني للحظات وأفرغت الهواء المتجمع داخل رئتي في تنهيدة طويلة صامتة. خيل إلى أنني نسيت تغييره منذ ما يزيد عن الساعة. الهواء الجديد الذي استنشقته أنعش خياشيمي، وعذوبة رائحة الشاي المختلطة بالبخور هدهدتني. بعثت السكينة في داخلي مجتازة شعب رئتي وصولا إلى أصغر الفروع. لبثت لحظات في هذه الحال، فاقدا لوزني، أفرغ ذهني.

عندما فتحت عيني من جديد، رأيت، مثل رؤيا، امرأة شابة جالسة على مقعد صغير يبعد عني أمتارا قليلة. أكاد أقسم أنها لم تكن هناك عندما دخلت، أو أنها كانت جالسة هناك لكن ذهني المبعثر جعلها غير مرئية إلى أن استرخيت قليلا. كانت ضئيلة الحجم وظهرها مستقيم، ما رأيته جانبيا، أبرز انحناءة طبيعية مرتفعة. شعرها الطويل الكستنائي كان مشدودا أعلى رقبتها بشكل كاف مكنني من تأمل رقتها. كانت منشغلة بكتاب موضوع على الطاولة المنخفضة، ويدها اليمنى تدير الملعقة الصغيرة في كوب الشاي المدخن بطريقة آلية. تأملتها طويلا، أعجبت برقتها الطبيعية. قطعت جلستها تلك كي تحمل كوب الشاي إلى شفتيها، شفتان جميلتان ممتلئتان جعلتاني أفكر بحبات التوت. وضعت الكوب على الطاولة وأدارت رأسها برقة في اتجاهي، وقع نظرها على وكأنها، تنبهت لوجودي، انتظرت اللحظة المرجوة كي تنتبه لي. التقت عيناها بعيني ولم تتركهما لوقت بدا لي أبديا. كانت نظراتي ملتصقة بنظراتها حتى أنني لم أجرؤ على أن أطرف جفوني. بدا لي وكأن المسافة التي تفصل بيننا تضاءلت تحت تأثير الزووم الذي نقوم به، وكل ما يحيط بنا أصبح ضبابيا أو اختفى. كنت محاطا بالفراغ أمام عاصفة من الجمال التي امتصتني، مثل ثقب أسود. الموسيقى بدت بعيدة، وفي نفس الوقت، كانت تبدو كأنها تنبعث من داخلي. المرأة الشابة لم تبتسم، ووجهها كان جامدا تماما. أنفها الرقيق كان يتحرك بطريقة لا مرئية حسب نسق تنفسها. من العبث محاولة قراءة أفكارها، أو فهم ما تعنيه نظراتها. ما كنا بصدد عيشه كان يفوق الوصف، يتجاوز اللغة، يتجاوز الفهم. كانت روحها تتحدث إلى روحي، التي كانت تجيبها. لم يعن هذا سواها، ولم يكن مجديا البحث عن معنى لما يتجاوزنا. في الحقيقة، لم أكن أرغب في شيء، لم أكن في حاجة لشيء.

لم أعد أنا، تجاوزت ما أنا عليه. ربما وصلت، للحظات، ذلك البعد الذي تلتقي فيه الكائنات وتتخاطب دون أن تتكلم.

ما عشته قام بتشويه الزمن فلم أعد قادرا على تقدير الوقت الذي مضى ونحن على هذه الحالة. قطع مجيء النادل تواصلنا، أحضر لي الحساب واستأثر بالحوار. بعد أن قضيت وقتا في إجابة النادل، البحث عن النقود، دفع الحساب.. لم تعد هناك. اختفت فجأة مثلما ظهرت. شعرت أنه سيكون من العبث البحث عنها، أن أسرع للخارج، أستجوب الموجودين. أن أجدها، أدخل معها في علاقة، أحدثها، كل هذا سيعيد للأرض ما عشناه والذي كان روحانيا أكثر. ثم أننا لا نستطيع إضافة شيء إلى الكمال دون أن نتسبب في إفساده، دون أن نبتعد عنه ونخسره في النهاية. وعلى أي حال، الكمال لا ينفع لإقامة علاقة. لا نحارب من أجل تحقيق شيء هكذا. الحياة هي كل شيء دون الكمال.

بقيت لبعض الوقت في "يوغي" قبل أن أتذكر مهمتي. خرجت وأمضيت الساعة الموالية في التوجه نحو العديد من الأشخاص كي أصوغ طلبات مختلفة، ومضيت أكثر فأكثر في اللامقبول. مع ذلك، لم أتمكن أبدا من أتحصل على "لا" صريحة وواضحة. إما أن يوافق الناس جزئيا على طلبي أو يبحثون عن صيغة ما لإجابة طلبي. سأنهي اليوم بخيبة أمل كبيرة، أنا الذي عقدت العزم على أن أنجز هذه المهمة على أكمل وجه. لحسن الحظ، الشخص الذي رأيته فجأة في طرف الشارع سيحمي شرفي ويمنعني من العودة إلى مكاني خالي الوفاض.

" -هانز"! "هانز"! ناديته من بعيد. "هانز"، هل تستطيع أن تقرضني القليل من المال؟

14

عدت إلى كوخي مبتهجا للنصر الذي حققته. كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بالفرح يغمرني لدى رؤيتي لوجه رافض، نظرات متجمدة، حاجبين متغضنين حتى أنهما رسما تجعيدة فوق الأنف، وشفتين مزمومتين.

شعرت بأن المشهد حدث ببطء شديد، بطء مكنني من أن أبتهج في جزء من أجزاء الثانية، لقطة بلقطة، أذكر كل واحدة منها كأنها حصلت بالأمس: أرى فمه يفتح وفي اللحظة التي ابتعد فيها لسانه عن الحنك، أطلق تنفسه صوتا أصدر فرقعة في الهواء كأنها فرقعة سوط، مشكلا كلمة الرفض السحرية، هذه الكلمة التي بحثت عنها يائسا طول فترة ما بعد الظهر. كم رغبت في تصوير المشهد حتى أشاهده فيما بعد لمرات.

كان عليَّ أن أشرع ذراعي في الهواء وأرفع عيني إلى السماء وأسقط على ركبتي، مثلما يفعل بطل تنس فاز بفضل الرمية الأخيرة في المباراة النهائية لإحدى البطولات الأربع الكبرى. كان بإمكاني أيضا أن أقفز إلى عنقه وأقبله بامتنان. اكتفيت بأن أبتسم وأنظر إليه بصمت، منتظرا متعة رؤيته يفسر موقفه هذا بإحدى حججه الواهية أو بمثل رخيص. عندما قلت له أن هذه مجرد مزحة،

وأنني لم أكن في حاجة إلى النقود، ضحك، ضحكة متصنعة لشخص تنفس الصعداء لكنه ظل يشعر بالتوتر الذي سببه له طلبي.

فخورا بنصري، أحرزت نقطة أخرى لدى اتصالي بوكالة الأسفار التي في "كوتا"، أين قيل لي بوضوح "لا"، لم يكن ممكنا أن أغير تاريخ تذكرتي دون أن أدفع 600 دولار. لم أستقبل أبدا خبرا سيئا كهذا بمثل هذه السعادة.

في حماس اللحظة، جعلني الغرور أتصل بمديري السابق في العمل. لم أحسب فرق الوقت وأحسست بأنني أخرجته من الفراش: كان صوته شبه نائم، مع النبرة القلقة التي نتحدث بها عندما يأتينا اتصال منتصف الليل ونشرع في التساؤل أي شيء فظيع حدث حتى يتصلوا بي في ساعة مماثلة. حدثته بحماس عن مشروعي دون أن أبدي اهتماما للتناقض بين حماسي والنعاس البادي في صوته. استمع لي دون أن يغلق السماعة، وعندما سألته إن كان بإمكانه أن يمنحني القليل من الوقت كي يعلمني جوانب من خبرته الشخصية، رضخ لي، دون شك شاعرا بالراحة لأنني لم أتصل لأعلمه بموت جدته أو انفجار مدرسته إثر هجوم إرهابي.

اثنان من خمسة كانت في النهاية نتيجة محترمة بالنسبة لشخص كاثوليكي، وبثقة في النفس وشعور بالسكينة انطلقت نحو شاطئي أين كرست سهرتي لمهمتي الثانية: أن أتخيل نفسي مكان مصور فوتوغرافي، أن أتوجه لسماع أحاسيسي حول هذه الهوية المهنية الجديدة.

حمامي الليلي كان وقتا لذيذا تمكنت فيه من التخلص من الضغوط، الاسترخاء والشعور بالسعادة، بعد هذا اليوم المتعب لكن المربح.

15

-إذن، هل كان الأمر بالسهولة التي تصورتها، تجميع الـ "لا"؟

-يا إلاهي، لا، اعترفت.

ابتسم وجلس على حصيرته في وضعية اللوتس. تأملته، فرحا لوجودي مرة أخرى أمامه. أحببت وجهه الهادئ، رابط الجأش. وجه شخص لا ينتظر شيئا من الحياة، لا يطمع في شيء، لا رغبات خاصة لديه. شخص يكتفي بأن "يكون" ويهب هذه الحالة للآخرين، مثل مثال نستطيع الاقتداء به إذا ما أردنا.

-الأشخاص الذين يخافون الرفض، واصل قائلا، بعيدون عن معرفة أنه من النادر أن ترفض من طرف الآخرين. صعب أن يمتلكوا هذا المفهوم. الناس، في المجمل، يميلون لتقديم المساعدة، كي لا يخيبوا ظنك، يقومون بما تنتظر منهم. نحن ننتهي بأن يتم رفضنا تحديدا عندما يتملكنا الخوف من ذلك، وهذا حسب آلية الاعتقاد التي أصبحت تعرفها الآن.

-هذا صحيح.

-عندما نتعلم أن نتجه نحو الآخرين كي نطلب منهم ما نحن بحاجة إليه، نهب أنفسنا عالما بأكمله. الحياة، هي الانفتاح على الآخرين، وليس الانغلاق على الذات. كل ما يمكننا من التواصل مع الآخرين هو شيء إيجابي.

فكرت مجددا في حواري مع "هانز" البارحة..

رغم كل شيء، قضيت وقتا ممتعا، وفي نهاية المطاف، كنت أعرف أنه سيتذمر ولن يقوم باحتقاري.

-أظن أنك على حق.

-إذن، هل تمكنت من تصور نفسك مكان من تريد أن تصيره؟

-أوه حسن، بالضبط، كنت سأتحدث حول هذا: لدي مشكلة تتعلق بهذا الموضوع.

-جيد أنك انتبهت لوجودها قبل أن تنطلق في مشروعك.

-أجل، بالتأكيد، هكذا أفضل.

-ما الذي سبب لك مشكلة؟

-عندما أتخيل نفسي مكان مصور فوتوغرافي، و أقصد بهذا فنانا، لا أشعر بنفسي مرتاحا لهذه الفكرة على الإطلاق.

-ما الذي يزعجك تحديدا؟ سألني بنبرة توحي بالسرية.

-حسن، أنا من... كيف سأفسر هذا؟. من عائلة لا تقدر سوى المهن الرفيعة. دفعني والداي لمواصلة الدراسات العليا. لم يكن لدي خيار. في عائلتي،

تحضى بالاحترام ما دمت عالما أو مدرسا، فقط تقريبا. المهن الأخرى تعتبر غير جدية. لذلك، مصور..

-لهم الحرية في أن يكون لهم هذا الرأي، و أنت لديك الحرية في أن تفعل ما تريد بحياتك.

-بالطبع، و من الواضح أنني في سني هذه لست مجبرا على التفسير لهم، لكن هذا سيكون بمثابة صدمة بالنسبة إليهم! أخشى أن يحزنوا.

-هل يشعرون بالحزن حاليا، لمعرفة أنك لم تقطع أشواطا في مهنتك هذه؟ هل جاءوا إليك كي يجعلوك تشعر بالراحة؟

-لا، ليس تماما.

-إن كانوا يحبونك، ما الذي سيفضلونه حسب رأيك: أن تكون مدرسا تعيسا أو مصورا سعيدا؟

-إن كان الأمر هكذا...

-عليك أن تراه بهذا الشكل: إن كنت تحب الآخرين فقط عندما يتصرفون بطريقة تتلاءم مع أفكارنا، فهذا ليس حبا... لهذا أعتقد أنه لا يوجد ما تخشاه من جانب الذين يحبونك. حتى وسط عائلة متحابة، على كل واحد أن يعيش حياته. من الجيد أن نأخذ بعين الاعتبار نتائج ما نفعله على الآخرين حتى لا نضر بهم، في المقابل، لا نستطيع أن نراعي رغباتهم دائما، وبشكل أقل الطريقة التي يقدرون بها أفعالنا. كل واحد مسؤول عن تقديره الخاص به. لست مسؤولا عن آراء الآخرين.

كان على حق، بدون شك، مع ذلك لم يختفي انزعاجي.

-في الحقيقة، كنت أتساءل على أي مقياس لم تصبني عائلتي بالعدوى: مع أنني متحمس لهذا المشروع، لست مرتاحا تماما لفكرة مغادرة مخيم العلماء لأنضم إلى مخيم الفنانين!

-أعتقد أنه ليس من الملائم تحليل الأمور استنادا إلى فكرة المخيمات، وبالأخص فكرة الانتماء إلى هذه المخيمات. الوضع بالنسبة لك ليس مجرد ترك معسكر والانضمام إلى آخر، بل تحقيق مشروع تحلم به.

لبثت مفكرا، متأثرا بالتأكيد بكلامه، لكنني أظن أنه شعر أنني لازلت عالقا في نفس الحالة.

-تعال معي، قال لي وانتصب واقفا ببطء. بالطريقة التي تحرك بها، انتبهت لأول مرة، لسنه الكبيرة، انطباع لا يلبث أن يختفي ما أن يشرع في التحدث، لشدة ما ينطق الأفعال بدقة وصفاء.

نهضت بدوري وتبعته. طاف حول الأبنية المختلفة التي تكون المنزل، ثم سلك دربا يتعرج بين الأشجار، كانت الأشجار كثيفة لدرجة لا تستطيع معها أن تميز حدود الحديقة. مشينا لدقائق عديدة في صمت، واحد وراء الآخر، ثم اتسع الطريق فمشيت حتى صرت في مستواه. كانت هناك قطع أرض صغيرة مغروسة هنا وهناك، ترعى بعناية: على الأغلب تحوي نباتات طبية، كانت فوق بعضها زهور صغيرة للغاية صفراء أو زرقاء. بعد أن تجاوزنا غيضة صغيرة من أشجار البامبو العملاقة المتخمة برائحة الخضرة، غارقين في الشفق ومحاطين برطوبة باردة، انفتح الدرب فجأة على إفريز مطل على واد يصيبك بالدوار.

كنت أعرف أن القرية منشأة في قمة أحد المرتفعات، لكني لم أتصور أبدا أن أعماق حديقة المعلم "سامتينغ" تسيطر إلى هذا الحد على الوادي الذي يمتد لمسافة كيلومترات، 200 أو 300 متر على الأقل. هذا المنظر العميق المفعم بالهواء – كنا كأننا معلقان في الفراغ – تناقض تماما مع بقية الحديقة، أين كانت كثافة الأشجار تمنع كل رؤية ممكنة. جلسنا جنبا إلى جنب على صخرة، أرجلنا معلقة في الفراغ، وبقينا صامتين لعدة دقائق، نتأمل هذا المشهد العظيم الذي جعلني أشعر بمدى ضآلتي. قطع المعلم الصمت بصوته الهادئ والمرحب.

-ما الذي تراه في حقول الأرز؟

رأينا من بعيد، في الأسفل، عشرات المزارعين، أرجلهم تغوص في المياه إلى منتصف ربلة الساق، الظهر منحن واليدان ممدودتان نحو نباتات الأرز.

-أرى مجموعة من العمال يشتغلون في الحقول.

-لا، ليسوا مجموعة من العمال.

-فريق من المزارعين، إذا أردت.

-لا، ليسوا فريقا ولا مجموعة.

سيبدأ باللعب بالكلمات إذن، قلت لنفسي.

-هل تعرف؟ قال لي، كم عدد البشر الموجودين على سطح الأرض؟

-ما بين 6 و 7 مليارات.

-وهل تعرف من كم جينة يتكون كل كائن بشري؟

-لا أعرف، بضع ملايين؟

-أقل بقليل من 30 ألفا. ومن بين كل هذه الستة مليارات من البشر لا يوجد اثنان يحملان نفس الجينات. اثنان! هل فهمت هذا؟ من بين ستة مليارات من البشر لا يوجد اثنان متشابهان!

-أجل، كل واحد منا فريد من نوعه.

-بالضبط! ومع أن البعض يمتهنون نفس المهنة، في نفس المكان، في نفس اللحظة، لا نستطيع أن نعتبرهم مجموعة أو فريقا، لأنه مهما كانت النقاط المشتركة بينهما، ستظل هناك دائما بينهما نقاط اختلاف أكثر من النقاط المشتركة المرتبطة بمهنتهما!

-فهمت ما أردت قوله.

-نميل أحيانا لتحليل الأمور حسب الفئات التي تنتمي إليها، لاعتبار أن الناس يتشابهون داخل فئة ما، في حين أنه في الواقع، في هذا الحقل الممتد بالأسفل، هناك عشرات الأشخاص الذين يملك كل واحد منهم هوية خاصة، قصة خاصة، شخصية منفردة، أذواق فريدة. أكثر من نصفهم يعيشون في القرية، وأعرفهم. فقط بمجرد النظر إلى حماسهم لإنجاز عملهم، ترى عدة اختلافات. الأول يقوم به لأنه يحب أن يكون بالقرب من الماء، في حين أن جاره ليس لديه خيار وعليه أن يعمل، والثالث يقوم به لأن هذا العمل يربحه نقودا أكثر بقليل من عمله السابق، والرابع كي يساعد والده. الخامس لأنه يحب الاعتناء بالنباتات ويحب رؤيتها تنمو. السادس يمارس هذا العمل لأنه تقليد في عائلتهم ولأنه لم يخطر بباله أن يقوم بشيء آخر. عندما نفكر مقسمين الناس

إلى مجموعات، فرق، معسكرات، نقوم بإزالة خصوصيات، قيمة وإسهامات كل واحد منهم، ونسقط بسهولة في البساطة والتعميم. نتحدث عن عمال، موظفين، علماء، فلاحين، فنانين، مهاجرين، بورجوازيين، ربات بيوت. نهزم النظريات التي تخدم معتقداتنا. ليس فقط أن معظم هذه النظريات خاطئة، بل هي تدفع الناس ليصبحوا ما تزعم النظرية أنهم عليه.

-فهمت.

-نخطو خطوة كبيرة في الحياة عندما نكف عن تعميم ما يخص الآخرين، وأن نهتم بكل شخص بشكل فردي، حتى إن كان مع ذلك جزءا من كل يفوقه، الإنسانية والأكثر من ذلك، الكون.

نظرت إلى الوادي البعيد الممتد لعدة كيلومترات. أمامنا، من الجهة الأخرى للفراغ، رسمت التضاريس هضبة أخرى، بالأحرى جبلا، ارتفع أكثر من الجبل الذي كنا فوقه، تفصل بينهما مئات الأمتار، كونا وادا صغيرا فيما بينهما. كانت بعض السحب منخفضة أكثر منا، بينما الأخرى كانت تعلونا، كنا نبدو وكأننا نطفو بين عالمين. هواء خفيف كان يهب بشكل منتظم خفض من شدة الحرارة، وحملنا فوق أمواج من العطور، والروائح القادمة من بعيد والتي لم أتمكن من تمييزها.

-حسن، لنعد نحو خرفاننا، قال المعلم.

-من فضلك، ارسم لي واحدا.

-عفوا!

-لا، لا شيء، كنت أمزح.

-عندما ستنجز مشروعك، بما أنه عزيز على قلبك، لن تنضم إلى فئة من الناس، سوف تكون أنت وحسب، تعبر عن مواهبك، بانسجام مع قيمك.

-هذا صحيح، علي أن أبقي هذا في ذهني.

-أجل.

-هل تعرف، تحدثت قليلا عن هذا المشروع مع شخصين من محيطي، علي أن أقول أنهما لم يحمساني.

-لماذا؟

-الأول قال لي بأن هذا الميدان مغلق وأنني لن أتمكن أبدا من إثبات نفسي فيه وأنا منهزم هكذا، دون شهادة أو علاقات. الآخر عارضني قائلا إنني لا أستطيع نيل شهرة في هذا العمل بين ليلة وأخرى دون أن يكون لي زبائن عندما أبدأ الشغل، وأنه ليس لي أي فرصة للنجاح.

-كل الأشخاص الذين يفكرون في إنجاز مشروع ما يواجهون بعض الصعوبات.

-هذا يعني؟

-عندما تتحدث عن مشروع ما في محيطك، سوف تردك ثلاث أنواع من ردود الأفعال: المحايدة، ردود الفعل المشجعة وردود الفعل السلبية و التي تهدف إلى ردعك.

-هذا واضح.

-يجب عليك بأي ثمن أن تبتعد عن الأشخاص الذين تشعر أنهم سيقومون بإحباطك. على أي حال، لا تصارحهم بمشاريعك.

-أجل، لكن، من جهة معينة، سيكون هذا مفيدا أن يقوم الآخرون بتنبيهك إن كنت تسير في الاتجاه الخاطئ.

-من أجل هذا، توجه فقط نحو المختصين في المجال الذي يهمك. لكن عليك ألا تثق بالأشخاص الذين يريدون إحباطك فقط من أجل إشباع حاجاتهم النفسية. مثلا، هناك أشخاص يشعرون براحة أكبر عندما يرونك في وضع سيء، والذين يقومون بكل شيء كي لا تتحسن! أو آخرون يكرهون رؤيتك تحقق أحلامك لأن هذا يذكرهم بفقدانهم الشجاعة لتحقيق أحلامهم الخاصة. هناك أيضا أشخاص يشعرون بالأهمية عندما تمر بصعوبات لأن هذا يمنحهم الفرصة لمساعدتك. في هذه الحالة، المشاريع التي تأتي من طرفك سوف تمنعهم عن هذا، وسوف يقومون بكل ما يستطيعونه بغية عرقلتك. هم يقومون بهذا دون وعي لذلك من العبث أن تنبههم. لكن من الأفضل ألا تشاركهم خططك. سوف يجعلونك تفقد ثقتك بنفسك. هل تذكر بالأمس لما تحدثنا عن الطفل الذي يتعلم المشي ولا ينهزم أبدا، رغم إخفاقه المتواصل؟

-أجل.

-إنه يثابر وينتهي بأن ينجح، هذا أيضا لأنه لا يوجد في العالم والد يشك في قدرة ابنه على تعلم المشي، ولا يوجد شخص في العالم سيحاول أن يثنيه عن

محاولاته. في حين أنه عندما يكبر، كثر هم الأشخاص الذين سيحاولون منعه من تحقيق أحلامه.

-هذا أكيد.

-لهذا سيكون من المناسب أن تبتعد عن هؤلاء الأشخاص أو أن لا تحدثهم عن مشاريعك. وإلا فإنك ستنضم إلى ملايين الناس الذين لا يعيشون الحياة التي يريدونها.

-فهمت.

-في المقابل، من الإيجابي أن يتواجد في محيطك شخص أو اثنان يؤمنان بك.

-يؤمنان بي؟

-عندما ننطلق في مشروع ما والذي يمثل نوعا من التحدي، مثلا عندما ننوي تغيير مهنتنا، سوف نعيش مواقف جيدة وأخرى سيئة. نؤمن بذلك، نرغب به، ثم مرة واحدة تنتابنا الشكوك، نكف عن الإيمان به، نشعر بأننا غير قادرين على إنجازه، نخاف من التغيير، من المجهول. لو كنا لوحدنا في لحظات كهذه، هناك احتمال كبير أن نتوقف، أن نهجر المشروع. إن كان هناك في محيطك شخص يؤمن بك، يؤمن بقدرتك على إنجاز المشروع ويجعلك تشعر بهذا عندما تراه، هذا سيقلب شكوكك، وسوف يختفي خوفك، كالسحر. الثقة بك التي يبديها لك هذا الشخص ستكون معدية. سوف تبعث فيك القوة على النجاح وتعطيك طاقة قادرة على إزاحة الجبال. نصبح أقوى أضعاف المرات من

لما نكون لوحدنا مع مشروعنا. لكن افهمني جيدا: ليس من الضروري أن يساعدك هذا الشخص أو يسدي لك النصائح. لا، المهم قبل كل شيء، أن يؤمن بك فقط. في الحقيقة، ستدهش لمعرفة عدد المشاهير الذين استفادوا من مساعدة أولية.

-لست متأكدا من أنه لدي شخص كهذا حاليا.

-في هذه الحالة، فكر في شخص أبعد، ربما جد أو صديق طفولة، حتى إن لم تكن تراه كل الوقت. إذا لم تجد أحدا فعلا، تستطيع أن تفكر في شخص لم يعد موجودا، شخص أحببته عندما كان لا يزال على قيد الحياة. فكر به وقل لنفسك:" أعرف أنه، في المكان الذي يوجد فيه، إن رآني أبدأ في هذا المشروع، سيثق بي." ما إن تنتابك الشكوك، فكر به وتخيله يقوم بتشجيعك لأنه يعرف أنك سوف تنجح.

-إذن، سأختار جدتي. لطالما رأيت في عينيها أنها فخورة بي. عندما يحصل أن أتحصل على درجات سيئة في المدرسة، كان والداي يؤنبانني، لكن هي، كانت تقول لي:" هذا ليس مهما، أعرف أنك ستحصل على درجة جيدة المرة القادمة"

-هذا مثال جيد. هناك أيضا أشخاص يؤمنون بالله ويستمدون منه القوة على العمل. كان "نابليون" مقتنعا أن نجمه جيد. خلال معظم المعارك التي خاضها، حتى التي انتهت بطريقة سيئة، ظل مقتنعا بأنه سينتصر، بمساعدة نجمه الجيد. قام هذا بتحميسه كثيرا ومده بالشجاعة التي كانت حاسمة في معظم الحالات.

-عندما كنت صغيرا، كانت لدي صديقة تحب قطها، كانت تقول أنها ترى في عينيه أنه يؤازرها في كل الظروف. كان أبواها قاسيين وباردين. عندما كانت تشعر بالحزن، لم يكونا أبدا ليواسياها. لذلك كانت تذهب لرؤية قطها، تداعبه وتحدثه عن أحزانها. كان ينظر إليها في عينيها مغرغرا، وبنظراته العميقة والمرحبة، كان يعيد لها ثقتها في نفسها.

-هذا ممكن جدا. الحيوانات تمتلك غالبا حبا لا مشروطا لسيدها، وتستطيع أن تحمل هذا الحب دائما. هل تعرف، بدأ الباحثون مؤخرا في إجراء بحوث عن الحب، واكتشفوا نتائج مذهلة. في إحدى الجامعات الأمريكية، فكر بعض العلماء- الذين يرعون خلايا سرطانية في طبق بتري - بجلب طلبة للولايات المتحدة، كان هؤلاء غالبا ما يمثلون حقل تجارب في مخابرهم. قاموا بتجميعهم حول الأطباق وطلبوا منهم أن يرسلوا الحب للخلايا السرطانية. قام الطلبة بما طلب منهم، ولاحظ العلماء أن الخلايا بدأت تضمر. لم يكونوا قادرين على تفسير هذه الحادثة، ولا على فهم كيف تمكن الطلبة من إرسال حبهم نحو الخلايا لكن النتيجة كانت موجودة وغير قابلة للنقاش: ضمرت الخلايا .

-هذا غير معقول.

-أجل، للحب بدون أدنى شك نتائج عديدة بدأنا باكتشافها للتو. لكن أغلبية العلماء لا يصدقون بهذا النوع من التجارب لأنهم يمقتون أن ينتهوا لنتائج لا يستطيعون تفسيرها فيما بعد. يجب أن نعلم أن هذا محبط، إن ما وضعنا أنفسنا مكانهم. أنا، الذي في عتبة حياتي الآن، أصبحت مقتنعا أن الحب هو الحل لمعظم المشاكل التي يواجهها البشر في حياتهم. قد يبدو هذا مجرد فكرة

بسيطة، مسلما بها، ومع ذلك تقريبا لا أحد يعتمدها، لأنه في الغالب من الصعب أن تحب.

-لنقل أنه يوجد أشخاص لا نرغب في أن نحبهم. لدي انطباع أن بعض الأشخاص يفعلون المستحيل حتى لا نحبهم!

-البعض أشرار لأنهم لا يتمكنون من حب أنفسهم. آخرون صعبو المراس لأنهم عانوا الكثير ويريدون أن تدفع كل البشرية ثمن ذلك. البعض لأنهم تأذوا من الناس ويريدون حماية أنفسهم من خلال تصرفات غير لطيفة. البعض خيب الآخرون أملهم لدرجة أغلقوا معها قلوبهم قائلين لأنفسهم أنهم لن يتعرضوا لخيبات أمل في المستقبل إذا ما عزلوا أنفسهم عن المحيطين بهم. آخرون أنانيون جدا لأنهم مقتنعون بأن كل العالم كذلك، ويظنون أنهم سيكونون أكثر سعادة إذا ما استبقوا الآخرين. النقطة المشتركة بين كل هؤلاء الأشخاص هي، إن كنت تحبهم، فسوف تفاجئهم، لأنهم لن ينتظروك. الأغلبية في الواقع، يرفضون تصديق مشاعر الحب في البداية، لشدة ما يبدو هذا غير طبيعي بالنسبة لهم. لكن إن ثابرت وأثبت لهم حبك، مثلا في الخدمات المجانية، سوف يقلب هذا طريقة رؤيتهم للعالم، وأيضا علاقتهم بك.

-كم أود الاعتراف بهذا، لكن ليس من السهل أن تذهب نحو الآخرين هكذا حاملا مشاعر إيجابية نحوهم.

-سيكون أسهل إن عرفت نقطة أخرى مشتركة بين كل هؤلاء الناس وهي وجود النية الحسنة وراء كل تصرف من تصرفاتهم، يتصورون أن ما يقومون به هو الأفضل، بل الطريقة الوحيدة الممكنة. لهذا، مع أن ما يقومون به غير جيد إلا

أن الدافع وراء تصرفاتهم غالبا ما يكون مفهوما. كي تحب شخصا كهذا، تعرف إليه من تصرفاته. قل لنفسك، أنه رغم تصرفاته الكريهة، هناك في مكان ما، في أعماقه، ربما مخفية بطريقة جيدة ودون أن يدرك هو ذلك، هناك بعض الطيبة. إذا ما تمكنت من رؤية هذا الشيء القليل وأحببته، سوف تقود هذا الشخص للتواصل مع هذا الجزء الصغير منه. هل تعرف، الحب هو أفضل وسيلة لإحداث تغيير لدى الآخر. إن توجهت نحو شخص ما وأنت تلومه على ما فعل، ستدفعه لأن يثبت على موقفه وألا يستمع إليك. سيشعر بأنه مرفوض وسيرفض أفكارك. وعلى العكس، إن توجهت نحوه وأنت مقتنع بأنه، رغم أن ما فعله أو قاله كارثي، فهو، في قرارة نفسه، شخص جيد وكانت نيته حسنة عندما قام بذلك، سوف تجعله يسترخي وينفتح على ما تود قوله له. هذه هي الطريقة الوحيدة لتهديه طريقة يتغير عبرها.

-هذا يذكرني بشيء سمعته في الراديو، منذ بضع سنوات. حدث هذا في فرنسا. كانت هناك امرأة تمت ملاحقتها حتى منزلها من قبل مغتصب متسلسل. ما أن فتحت باب منزلها حتى أسرع بالدخول حاجزا نفسيهما في الشقة. كان مسلحا، وهي، بما أنه لم يكن معها شيء تدافع به عن نفسها ولم تستطع الصراخ تحت تهديد سلاحه، فكرت في أن تتحدث معه. أجبرت نفسها على التحاور معه، محاولة دون جدوى جعله يعبر عن نفسه. قالت إن هذا أربكه قليلا، لأنه لم يكن ينتظر تصرفا مشابها من طرف ضحيته. واصلت التحدث، كانت تطرح الأسئلة وتجيب عليها، مخفية الرعب الذي تملكها. في لحظة ما، ليأسها الشديد، تبادر إلى ذهنها شيء من البداهة السليمة وقالت له: "لكنني لا أفهم لماذا تقوم بهذا في حين أنك تبدو شخصا جيدا" قالت بعدها

للصحافيين أن مهاجمها انفجر باكيا، وحدثها، من بين دموعه، عن حياته التعيسة، بينما حاولت هي أن تجبر نفسها على الاستماع مواصلة إخفاء هلعها. في النهاية تمكنت من جعله يرحل بنفسه.

-لقد ذكرت حالة شاذة، لكن صحيح أن الناس يميلون للتصرف بالطريقة التي نراهم عليها، للانتماء لما نراه فيهم. علينا أن نفهم أن كل واحد منا لديه صفات جيدة وأخرى سيئة، الصفات التي نركز عليها يصبح مداها أكبر، وتتسع. إذا ما سلطت الضوء عل خصال شخص ما، حتى إن كانت قليلة، سوف تكبر، تتطور وتصبح مسيطرة. ولهذا من المهم أن يكون في محيطك أشخاص يؤمنون بك، في خصالك وفي قدراتك.

16

-هل هناك جانب آخر من المشروع يجعلك تتردد، أو يشعرك بأنك لن تتفق جيدا مع نفسك عندما تتخيل نفسك قد أنهيته؟

-أجل، هناك نقطة أخيرة.

-ما هي؟

-في الحلم، أنا أجني الكثير من المال، مال كاف على أي حال ليشتري لي منزلا مع حديقة، وفي الحقيقة لست مرتاحا تماما لهذه الفكرة. لست متأكدا من كوني من النوع الذي يجني المال بسهولة، أو الذي يرغب في النقود في داخل نفسه. باختصار، هناك شيء يحزنني حول هذه النقطة.

-ها قد وصلنا!

-أستمحيك عذرا؟

كنت أعرف أننا سنصل إلى هذه النقطة عاجلا أم آجلا.

-النقود تبلور كل الخيالات، كل التصورات، الخوف، الكراهية، الرغبة، الغيرة، مركبات الشعور بالنقص، الشعور بالتفوق، وأشياء أخرى عديدة. هذا مفاجئ أننا لم نستعرض هذه النقطة إلا الآن.

-لم أعرف أن كلمة صغيرة كهذه تخفي العديد من الأشياء!

-هيا إذن، قل لي: ما سر القلق الذي تسببه لك النقود؟

حافظ على نبرة صوته المرحبة، لكنني لاحظت فيها نوعا من الاستمتاع، كأنه قام بطرح كل الأسئلة الممكنة حتى لم يعد ليستغرب من المشكلة التي سأطرحها عليه، مهما كانت.

-لنقل أنني لم أستقر على رأي فيما يخص هذا الموضوع: هناك جزء مني يرغب في جني المال، وجزء آخر لا يرغب في ذلك ويجده أمرا مقرفا.

-إذن السؤال المطروح هنا هو: كيف توفق بين هذين الرأيين، أليس كذلك؟

-من الجميل أن تقوم بصياغة المشكلة بهذا الشكل، لكن تقريبا هو هذا.

-إذن قل لي، في البداية، ماذا يريد الجزء الذي يرغب في النقود تحديدا؟

-أعتقد أن النقود ستوفر لي نوعا من الراحة: لدي شعور بأننا كلما ازددنا ثراء، وقلت حاجتنا للآخرين، كلما صرنا نتحكم بحرية أكبر في وقتنا، في أنشطتنا، دون أن نضطر لتفسير شيء لأي كان.

-هذا ليس خاطئا تماما، ماذا أيضا؟

-أوه حسن، أن أضمن لنفسي نوعا من الراحة المادية. أشعر بالضعف لتفكيري أنه من الأسهل أن تجد السعادة في منزل جميل، هادئ، على أن تجدها في شقة صغيرة مزعجة في حي صاخب ملوث.

-ليس هناك سوء في البحث عن الراحة المادية، وصحيح أن النقود تقوم بتسهيل الحياة. لأكون دقيقا أكثر، الراحة المادية لا تصنع السعادة، في المقابل غيابها يمكنه أحيانا أن يشوش راحتنا.

-يبدو هذا واضحا بالنسبة لي.

-مع ذلك، أشدد على واقع أن النقود لا تصنع السعادة. كثير من الأشخاص يتفقون على هذه الفكرة، وأحيانا يقدمون إثباتات قوية عليها، على الرغم من هذا، دون وعي منهم، في داخلهم، يعتقدون أن المال سيجعلهم سعداء. لذلك ينكرون تصرفات الأشخاص الذين يبدون ثراءهم لكن هذا النكران يكون في الحقيقة مغلفا بالغيرة لأن جزءا منهم يرغب بما لديهم ويجعلهم يعتقدون أنهم أكثر سعادة منهم. هذا الاعتقاد منتشر بشكل كبير، ويضم أيضا الناس الذين يبدون عكس هذا.

-أجل، هذا ممكن.

فكرت في صديقة لي، تنتقد بشدة الأثرياء وكل الذين يفكرون بالمال، وتقول إنهم حقراء. اهتمامها الشديد بهم يدل دون شك على التأثير الشديد الذي تحدثه أموالهم بها والذي كان على الأغلب مضرا.

-في الحقيقة، هذا التصور بالذات هو ما يجعل المرء تعيسا، بما أنه يدفع الناس نحو سباق بلا نهاية: نرغب في شيء ما، سيارة، ملابس، أو أي شيء آخر، ونبدأ في الاعتقاد أن امتلاكنا لهذا الشيء سيجعلنا نشعر بالاكتمال. نشتهيه، نرغب به، وفي النهاية، إذا ما حصلنا عليه، ننساه بسرعة ونصب اهتمامنا على شيء آخر، وبدون شك، سيجعلنا نشعر بالاكتمال إذا ما

امتلكناه. لا توجد نهاية لهذا البحث. الناس لا يدركون أنهم يركبون سيارة فراري، يسكنون في شقة هوليوودية ويسافرون على متن طائرة خاصة، يقتنعون بأنهم إن امتلكوا يختا سيصبحون سعداء. بالطبع، الآخرون الذين لا يمتلكون سيارة فراري سيصدمون لمعرفة هذا وسيقولون إنهم سيكتفون بأن يصبحوا أكثر ثراءا بقليل. لا يرغبون في شقة هوليوودية، لا، لكن شقة أكثر اتساعا وحسب، وهم مقتنعون بأن هذا سيجعلهم راضين ولن يرغبوا بشيء آخر أبدا. هنا بالضبط يخطئون: مهما كان المستوى المادي الذي نرغب به، سنرغب بالمزيد ما إن نصل إليه. إنه بالفعل سباق بلا نهاية.

كان لكلامه وقع خاص على مسامعي، لأنها تذكرني بأغاني الميلاد في طفولتي. كنت متحمسا عندما كتبت رسالتي لبابا نويل، مرفقة بلائحة الألعاب التي تمنيتها. فكرت بها لأسابيع، انتظرت بشوق اليوم الذي سأحصل فيه عليها. بلغ حماسي ذروته عشية الميلاد: لم تبرح عيناي شجرة التنوب، التي تحتها كنت أنتظر بشوق سعادة يوم غد. خلدت إلى النوم متخيلا أن الليلة ستكون دون نهاية، كنت ممتنا لمعرفة الساعة في الصباح الباكر. حل اليوم المهم أخيرا! عندما دفعت باب غرفة المعيشة واكتشفت علب الهدايا الملونة تحت شجرة التنوب المضيئة، شعرت بسعادة غامرة. أفرغت كل العلب، لاهثا من شدة الحماس، ثم أمضيت معظم النهار ألعب بما حصلت عليه من لعب، متمكنا دائما من التهرب من الوجبات العائلة التي لا تنتهي، تاركا البالغين لحواراتهم المملة. لكنني أذكر أنني، عند اقتراب حلول المساء، وبداية غروب الشمس، شعرت بسعادتي تخبو تدريجيا. لم تعد ألعابي الجديدة تبعث في نفس البهجة. حسدت نفسي على الحماس الذي شعرت به البارحة. أردت أن أعيشه مجددا. أذكر أنني قلت

في إحدى السنوات، أن حلمي بالحصول على الألعاب كان يسعدني أكثر من الألعاب نفسها. الانتظار أكثر تشويقا من عدم وجوده.

ذكرت هذا للمعلم الذي قال لي مبتسما:

-أكبر كذبة يقولها الوالدان لأطفالهما لا تتعلق بوجود بابا نويل، لكن بالوعد الضمني أن هذه الهدايا سوف تسعدهم.

تأملت المزارعين في الوادي وتساءلت إن كانت تقاليدهم تجعلهم أيضا، مرة في السنة، يحاولون إدخال السعادة على قلوب أطفالهم بإغراقهم بالهدايا المادية.

-حدثتني، واصل المعلم، عن الأسباب التي تحفز هذا الجزء منك، الذي يرغب في النقود. حدثني الآن عن الجزء الذي يرفض هذه الفكرة.

-أعتقد أن النقود في حد ذاتها تجعلني أشمئز قليلا. أشعر أحيانا أن هذا فقط ما يهم في العالم، أن تصبح النقود محور اهتمام الناس.

-نشهد انحرافا نوعيا، في الحقيقة، هذا مؤسف لأن النقود اختراع جميل.

-لماذا تقول هذا؟

-غالبا ما ننسى أنه في الأصل كانت النقود وسيلة لتسهيل عمليات التبادل بين البشر: تبادل الأغراض القيمة لكن أيضا تبادل الخبرات، الخدمات، النصائح. قبل اكتشاف النقود، كانت هناك عمليات المقايضة. من يحتاج شيئا ما كان مجبرا على العثور على شخص مهتم بالأشياء التي لديه المخصصة للمقايضة. لم يكن هذا سهلا.. في حين أن اختراع النقود مكننا من تقدير قيمة الأغراض القيمة، الخدمات، والنقود المجمعة من قبل الشخص الذي قدم مقابلها

خدمات وأغراض يتمكن فيما بعد من الحصول على أغراض وخدمات أخرى. لا يوجد سوء في هذا. بطريقة أخرى نستطيع أن نقول إنه كلما ازدادت النقود المتبادلة، كلما كثرت عمليات التبادل بين البشر، وهذا أفضل هذا..

-بما أنه هكذا، هذا مذهل!

-هذا ما يجب أن تكون عليه الأمور. أن نضع في خدمة الآخرين ما يمكننا القيام به، ثمرة عملنا، خبراتنا، ونحصل في المقابل على ما يستطيع الآخرون القيام به، وهكذا. النقود في الحقيقة ليست شيئا علينا جمعه، بل علينا استعماله. إن انطلقنا كلنا من هذا المبدأ، ستختفي البطالة، لأنه ليس هناك حدود للخدمات التي يمكن أن يقدمها الكائن البشري بالتبادل. يكفي أن نؤيد إبداعات الآخرين وأن نشجعهم على تنفيذ مشاريعهم.

-إذن لماذا أصبحت النقود شيئا سيئا في عصرنا هذا؟

-كي تفهم ذلك، عليك في البداية أن تفهم أهمية شيئين اثنين: كيف نجني المال وكيف ننفقه. النقود جيدة إذا ما أتت نتيجة لعملنا، لبذلنا لما في وسعنا. تمنح إذن راحة كبيرة للذي يجنيها. لكن إن تحصلنا عليها من خلال استغلال الآخرين، مثلا زبائننا أو زملاؤنا، إذن هذا يحدث ما نسميه بطريقة رمزية طاقة سلبية – الشامان يسمونه ال-"الهوشا"- وهذه الـ "هوشا" تجذب الجميع نحو الأسفل، تلوث أذهانهم، وفي النهاية، تجعلهم تعساء، من سلب ومن سلبه. هذا الأخير يمكن أن يشعر بأنه فاز بشيء ما، لكنه يجمع في نفسه هذه الـ "هوشا" التي تمنعه شيئا فشيئا من أن يصبح سعيدا. هذا يرى على الأوجه عندما نتقدم

في السن، مهما كان مقدار الثروة التي جمعناها.. في حين أن من يجني المال بإعطائه لأفضل ما لديه محترما الآخرين يمكن أن تزدهر ثروته.

لم أستطع منع نفسي من التفكير في "صورة دوريان غراي"، هذه الرواية العظيمة ل-"أوسكار وايلد" التي تصور رجلا حقيرا، ما أن يقوم بأي فعل شرير حتى يدون على وجه إحدى الشخصيات المرسومة على اللوحة، كانت الأفعال الشريرة تترك علامات على وجهه حتى صار قبيحا للغاية.

-قلت أيضا أن طريقة إنفاقنا للنقود مهمة.

-أجل، إن استعملنا النقود لمنح الآخرين فرصة إبراز مواهبهم، خبراتهم، مستعينين بخدماتهم، سوف تنتج النقود طاقة إيجابية. على عكس ذلك، إن اكتفينا بجمع الأغراض المادية، سوف تفرغ الحياة من معناها. سوف نجف شيئا فشيئا. أنظر حولك: الأشخاص الذين أمضوا حياتهم في الجمع دون أن يعطوا هم ليسوا في تواصل مع الآخرين. ليست لديهم أي علاقات إنسانية حقيقية. لم يعودوا قادرين لا على الاهتمام بشخص ما بصدق، ولا على الحب. وصدقني، عندما نصل إلى هذه النقطة، فلن نكون سعداء!

-هذا طريف، عندما أفكر في الأمر: أنا في الطرف الآخر من العالم، ألتقي معلما روحيا، كي نتحدث عن النقود!

-في الحقيقة، نحن لا نتحدث عن النقود.

-كيف؟

-نحن نتحدث عن الحدود التي تضعها لنفسك في حياتك. النقود ليست سوى استعارة للإمكانات التي لديك.

أرجحت ساقي فوق الفراغ وتأملت هذا الفضاء الشاسع المفتوح أمامي. تيار الهواء الخفيف الحار واصل مداعبة أنفي بالروائح العطرة التي يحملها هامسا بالأسرار في أذني.

-في النهاية، ربما سأجمع مقدارا كافيا من المال اليوم ولن أضطر لجمع المزيد. لكن، قل لي، بما أنك مرتاح لفكرة جمع النقود، لماذا لست ثريا؟

ابتسم، قبل أن يجيبني:

-لأنني لست في حاجة إليها.

-إذن لماذا تقوم بمساعدتي على تقبل فكرة جني المال؟

-لأنه يجب عليك ربما أن تجمع مقدارا معينا منها قبل أن تنفصل عن الفكرة.

-ماذا إن كنت منفصلا عنها أصلا؟

بعد صمت قصير، قال لي:

-هذا ليس انفصالا، إنه رفض.

ترددت كلماته بداخلي، شعرت أن صدى صوته تخلد في شكل ذبذبات.

علي أن أعترف، مرة أخرى، أنه على حق.

-في الفلسفة الهندوسية، واصل قائلا، نعتبر جني المال هدفا نافعا، وهذا يتطابق مع إحدى مراحل الوجود. علينا فقط ألا نجعلها تعيقنا عن التقدم، وأن نوجهها في شيء جيد كي ننجح في حياتنا.

-ما هي الحياة الناجحة؟ سألته بنوع من السذاجة.

-الحياة الناجحة هي حياة عشنا فيها ما تمنيناه، بالتوافق دائما مع القيم التي لدينا، مقدمين دائما أفضل ما لدينا في كل ما نقوم بفعله، منسجمين مع ما نحن عليه، هي حياة أعطتنا فرصة للتفوق على أنفسنا، للاهتمام بشيء آخر غيرنا ولإضافة شيء ما للبشرية، حتى إن كان متواضعا، حتى إن كان قليلا. ريشة عصفور صغيرة تطير مع الرياح. ابتسامة نقدمها للآخرين.

-هذا يفرض أن نعرف ما نريده في الحياة.

-أجل.

-وكيف سنتأكد أننا نتصرف وفق قيمنا؟

-حسب ما نشعر به: إن كان ما نقوم به لا يحترم مبادئنا، سوف نشعر بالانزعاج، بعدم الراحة، أو شعور بالذنب. هذه علامة عليها أن تقودك لأن تسأل نفسك إن كانت أفعالك تتناقض مع ما هو مهم بالنسبة لك. تستطيع أيضا أن تسأل نفسك في آخر النهار، إن كنت فخورا بما قمت به، حتى إن كانت أشياء بسيطة. هذا مهم جدا: لا نستطيع أن نتطور كبشر، ولا أن نحافظ على صحة جيدة، عندما نقوم بأشياء تتعارض ومبادئنا.

-طريف أن تربط هذا بالصحة، لأنني أذكر أنه، عندما كنت طالبا، عملت خلال الصيف كمندوب عبر الهاتف لشركة تأمينات. كان علي أن أتصل بالناس وأن أنصحهم بأن ينظموا لإحدى برامج الضمان الصحي. كانت الشركة تعرف أن ثلاثة أرباع الأشخاص الذين نتصل بهم يتمتعون أساسا، دون أن يعلموا ذلك، بهذا الضمان الصحي كإحدى الخدمات المقدمة لهم مع بطاقاتهم البنكية. لكن كان علي بالأخص ألا أذكر هذا، وكنا نقوم باقتراح هذا البرنامج لجميع الذين نتصل بهم. في ذلك الصيف، أصبت للمرة الأولى في حياتي بـ "أكزيما" حادة. لم يتمكن الطبيب من تحديد سببها، ولم تنفع الأدوية التي وصفها بشيء، لذلك تركت تناولها. تطورت حالة الـ "أكزيما" وانتهيت بترك العمل لأنني خجلت من أن أظهر في المكتب على تلك الحالة. بعد ذلك بثمانية أيام، اختفى كل أثر لها.

-لا نستطيع التأكد من ذلك، لكن ربما كانت رسالة لك من جسمك كي ينبهك لأنك تعمل بشكل يناقض مبادئك، احترامك للآخر، صدقك واستقامتك.

-صحيح، هذه قيم أساسية بالنسبة لي.

-كنت متأكدا من ذلك.

-قلت أيضا أنه علينا أن نقدم أفضل ما عندنا عندما نقوم بشيء ما؟

-أجل، هذا من أحد مفاتيح السعادة. تعرف أن الإنسان دائم التذمر، لكنه يفعل كل شيء لتلبية حاجاته الخاصة. بالفعل عندما نركز على ما نقوم بفعله كي نضع خبراتنا قيد التطبيق، وننتصر كل مرة على تحد جديد، سنشعر

أننا سعداء. هذا صحيح بالنسبة لجميع الأشخاص، مهما كانت مهنتنا أو مستوى خبرتنا. وسعادتنا تزداد إذا ما جلب عملنا النفع للآخرين، حتى إن كان هذا بطريقة مباشرة، أو متواضعة.

في تلك اللحظة بالذات، أرجعتني ذاكرتي أربع سنوات للخلف. كنت في المغرب، في مراكش. كنت أتنزه في ساحة جامع الفناء في نهاية النهار. أغرق الليل الساحة في جو خلاب. محلات كثيرة للوجبات الخفيفة أوقدت نار الأفران التي كانت تشوي فوقها اللحم. سلطت النيران لهيبها على المارة، أنارت الوجوه وجعلت الظلال المتفاوتة ترقص. تداخلت روائح السجق المشوي مع عبق أطباق الكسكسي المدخن. الباعة كانوا في كل مكان. بعضهم كان يعرض أغراضا من الجلد خرجت للتو من محلات الدباغة المجاورة، التي كانت لا تزال تبعث رائحتها القوية القاسية. آخرون كانوا يبيعون أطباقا كبيرة من النحاس المنقوش كانت تعكس ضوء النيران، موزعة ظلالا ذهبية فوق الوجوه، العمائم والجلابيات. الأصوات الصاخبة اختلطت مع أصوات الطبول وأنغام ناي الحاوي. مشيت، فاتحا عيناي على اتساعهما، مسحورا بهذا الجو المذهل، الروائح العبقة بالعطور، الصور، الأصوات، عندما استوقفني رجل ضئيل الحجم، يبدو في الخمسينيات من العمر، مبتسما، وجهه قد لفحته شمس الجنوب. كان جالسا فوق صندوق موضوع مباشرة على الأرض، محاطا ببائع أكلات خفيفة وتاجر أوان فخارية. ابتسمت له بدوري وصوبت نظري نحو المقعد الذي أشار على بأن أجلس فوقه. وقتها فهمت ما هي حرفته. ماسح أحذية. تجمدت ابتسامتي وتصلبت في مكاني تدريجيا. لم أشعر أبدا بالراحة لدى تفكيري بالحرف التي تدفع الذين يشتغلونها للقيام بأشياء مثيرة للسأم. مسح الأحذية كانت ربما حرفة أتقبلها

بصعوبة شديدة، لأن الحرفي يعمل بحضور زبونه، أمامه، فوقه. حتى أن وقفة كل منهما كانت تزعجني: الزبون جالس على مقعد مرتفع، مسيطرا على الوضع، الماسح تحته، منحن، جالس، أو فوق ركبتيه على الأرض. لم أطلب أبدا خدمات كهذه.

جدد الرجل دعوته وأصر بلطف، باتسامته المشرقة. بما أنني كنت سائحا قادما من الغرب فإنني مثلت بالنسبة له الزبون المثالي. لكن موقعي كسائح زاد من شعوري بالانزعاج: لا أريد أن أعطي أبناء بلده فرصة رؤية سائح أجنبي يمسح حذائه من قبل واحد منهم، في وضعية كنت أراها مهينة. إحدى الكليشيهات الاستعمارية. لم أعرف إن لاحظ انزعاجي أو أنه فسره على أنه نوع من التردد. ربما الاهتمام الذي أبديته لعرضه أعطاه الأمل ليقنعني. نهض من مكانه، مبتسما كالعادة، واقترب مني. لم يكن لدي الوقت لأعبر عن رفضي: أصبح فوقي ماسحا حذائي المتسخ مكونا تحليله ووعده بأن يعيد له شبابه. الصعوبة التي لدي في رفض رغبات الآخرين تفسر دون شك لماذا وجدت نفسي رغما عني، جالسا على المقعد الذي تأملته منذ قليل بازدراء. لم أستطع أن أنظر حولي مخافة أن ألتقي بنظرات تحمل الاتهام. كان منكبا على حذائي. أخرج نصف حبة ليمون وفرك بها الجلد المتهالك بنشاط. في الحالة التي كنت فيها، لم يكن هناك شيء يدهشني بعد. أظن أنه هرس حبة موز على كعبي حذائي، ولم أكن لأستغرب أكثر من هذه الدرجة. كان يعمل بحماس. واثقا من نفسه، كان متحكما في حركاته، مراوحا بين حبة الليمون وأنواعا مختلفة من الفراشي. عن بعد، صوت ناي الحاوي كان يخلد المرثاة دون انقطاع. بدأت أتخلص من تصلبي. تبادلنا بضع عبارات، لكنه ظل مركزا على عمله، محافظا

على ابتسامته. وضع نوعا من الجال الأسود وطبقه باستعمال إسفنجة صغيرة، مدلكا الجلد حتى يمتص المادة. انهمك في تلميعه بفرشاة صغيرة رشيقة، وكلما ازداد حذائي لمعانا، كلما اتسعت ابتسامته، كاشفا عن أسنان ناصعة البياض تناقض لونها مع بشرته السمراء. عندما صار حذائي لامعا وناعما مثل اليوم الأول، لمعت عيناه فخرا. نسيت تماما انزعاجي السابق. كانت بهجته معدية، وشعرت بنفسي فجأة قريبا جدا من هذا الرجل الذي لم أكن أعرفه قبل ربع ساعة. شعرت بكثير من التعاطف نحوه، مثل موجة من الصداقة. طلب مني مبلغا معقولا دفعته عن طيب خاطر، وفي حماس اللحظة أصر على أن يضيفني شايا بالنعناع في كوب معدني صغير، متقاسما بهجته هكذا موطدا العلاقة فيما بيننا. تنبهت فجأة إلى شيء بدا لي مثل حقيقة، حقيقة مؤلمة: كان هذا الرجل أكثر سعادة مني، أنا الذي أنعم بمهنة ذات قيمة ومع قلة مواردي كنت ألف مرة أكثر ثراء منه. هذا الرجل كان يستنشق السعادة بواسطة كل المسام التي في بشرته، وهذه السعادة كانت تشرق من حوله.

لمجرد تذكر هذه الحادثة التي حصلت منذ أربع سنوات، أحسست بعيني وقد صارتا رطبتين.

-لماذا تحدثت عن فائدة وجود تحديات نتجاوزها حتى نشعر بالسعادة ونحن نستغل خبراتنا؟ سألته.

-لأن التحدي يحفز تركيزنا، ويدفعنا للعمل ونحن نبذل جهدنا، حتى نستمد منه فيما بعد راحة حقيقية. هذا شرط كي نندفع في أفعالنا.

-قلت أيضا أن الحياة تكون ناجحة عندما نعمل بانسجام مع ما نحن عليه. لكن كيف سنعرف إن كانت هذه هي الحال؟

-تخيل أنك سوف تموت هذا المساء، وأنك تعرف هذا منذ أسبوع. من كل ما قمت بفعله خلال الأسبوع، ما الذي كنت لتحافظ عليه مثلما هو، مع العلم أنك ستموت؟

-هذا سؤال صعب!

-أجل.

-لنقل أن هذا الأسبوع كان خاصا نوعا ما، إن أخذنا بعين الاعتبار لقاءنا. لم أكن لأغير الشيء الكثير.

-إذن، فكر في الأسبوع الذي سبق مجيئك إلى "بالي."

-أوه، حسن... لنقل... حسن... لنرى.

حاولت أن أتذكر ما الذي حصل خلال ذلك الأسبوع. أجبرت نفسي على تذكر أفعالي ساعة بساعة، ولكل واحدة منها، تساءلت إن كنت سأقوم بها فعلا مع علمي بأنني سأموت في نهاية الأسبوع. تطلب مني الأمر عدة دقائق حتى أجبته في النهاية:

-هناك تقريبا ثلاثون بالمائة من أفعالي كنت لأحافظ عليها عموما.

-أنت تقول أنك كنت لتغير 70 بالمائة مما قمت به، إن كنت تعرف أنك ستموت؟

-نعم.

-هذا كثير، كثير جدا. من الطبيعي أن تنجز بضعة أشياء دون معنى، لكن في نسب محدودة. في الحقيقة، عليك أن تتمكن من قلب النسب: أن تستطيع أن تثبت أنك، مع علمك بموتك القريب، سوف تواصل تطبيق 70 بالمائة مما تقوم به في العادة. ستكون هذه علامة على أن أفعالك منسجمة مع شخصك.

-فهمت.

-وتلاحظ أن الأمر لا يتعلق بصعوبة الأعمال المنجزة، لكن ببساطة بالمعنى الذي تعنيه لنا.

-جيد جدا، أتفق مع كل هذا في المطلق، لكن في مستوى التطبيق ليس من الممكن دائما أن نقوم بما نريده.

-لدينا الخيار دائما.

-لا، إذا لم أقم بما يتعارض معي أحيانا قد أفقد عملي.

-لديك الخيار إذن في أن تفقد أو أن تحافظ على هذا العمل.

-لكن هذه ستكون مخاطرة، من الممكن أن أجد عملا بعدها أقل ربحا ولن أتمكن من دفع إيجار السكن!

-سيكون لديك الخيار إذن في الحفاظ على هذه الشقة أو تركها نحو مكان أقل ثمنا، ربما سيكون أبعد عن مكان عملك.

-عائلتي وأصدقائي سوف يحزنون إذا ما ابتعدت.

-سيكون لديك الخيار إذن في أن ترضيهم أو أن تخذلهم.

-بما أن الأمر هكذا...

-أريد أن أفهمك أن الخيارات تنتمي إلينا. في بعض اللحظات في الحياة، لن يكون أمامنا العديد من الخيارات، وربما كان بعضها مؤلما، لكنها تظل موجودة، وفي النهاية أنت من ستختار ماذا ستعيش: أمامك خيار دائما، ومن الجيد أن تبقي هذه الفكرة في ذهنك.

-لدي انطباع أحيانا أن الآخرين يقومون بالاختيار عوضا عني.

-إذن، الذي اخترته في هذه الحالة هو أن تتركهم يقررون عوضا عنك.

-أجد أيضا أحيانا أن هناك أشخاصا يتمتعون بخيارات أكثر من غيرهم.

-كلما تقدمنا في الحياة كلما تخلصنا من الأفكار التي تقيدنا، وكلما تمتعنا بخيارات أكثر. والخيار هو الحرية.

تأملت الفضاء الواسع أمامي، هذا الفضاء الذي يصيب المرء بالدوار، وأخذت أحلم بالحرية، غابت نظراتي في الأفق، مستنشقا بعمق هذا الهواء المشبع برائحة اللانهاية.

-هل تعرف، واصل المعلم، لا نستطيع أن نكون سعداء إذا ما رأينا أنفسنا ضحايا للآخرين. من الضروري أن تفهم أنك أنت دائما صاحب القرار في حياتك، مهما كانت. حتى إن كنت العامل الأقل شأنا في مكان عملك، أنت هو المدير في حياتك. أنت هو من يمسك بزمام الأمور. أنت سيد قدرك.

-أجل.

-ولا يجب أن يخيفك هذا: سوف تكتشف أنه تحديدا عندما تمنح نفسك فرصة اختيار الأعمال التي تنسجم معك، التي تحترم قيمك و تبرز قدراتك، سوف تصبح قيما بالنسبة الآخرين. ستفتح الأبواب من تلقاء نفسها. كل شيء يصبح أكثر سهولة، ولن يعود من الضروري أن تقاتل حتى تتقدم.

لبثنا صامتين لوقت طويل. ثم نهض من مكانه وقلت قاطعا الصمت:

-لقد استفسرت حول تذكرة طائرتي. لا أستطيع أن أغيرها دون أن أدفع زيادة كبيرة. كنت ستقول لي إن كان هناك أشياء مهمة على أن أكتشفها وتتطلب أن نلتقي غدا.

-أظن أنه مازال أمامك شيء رئيسي لتتعلمه.

-غدا، لست متفرغا صباحا؟

-لا.

-اعذرني على الإلحاح، لكن ألا تستطيع أن تتفرغ لي حتى أتمكن من الإبقاء على رحلتي بعد الظهر؟

-لا.

ليس هناك حظ. كنت أمام اختيار تراجيدي: هل على أن أرفض آخر لقاء معه ربما سيمكنني من أن أستيقظ لنفسي، أو أن أدفع مبلغا ضخما كي أغير تاريخ رحلتي؟

-ما الذي كنت ستفعله لو كنت مكاني؟ هل كنت ستغير الرحلة؟

-الاختيار لك، قال بابتسامة رضى على شفتيه، مثبتا عينيه المليئة بالطيبة على عيني المتسائلتين.

انعكس المجهول في حدقتيه.

ابتعد في اتجاه الحجرات، بخطواته البطيئة والهادئة، واختفى عن نظري حين غاص في غيضة أشجار البامبو.

17

600 دولار! هذا المبلغ يساوي تقريبا سعر تذكرة العودة! صعب أن أقبل.. هذا سيضر بحسابي البنكي ويزيد من سوء وضعه الذي يثير في الدوار منذ الآن. سوف تتأثر علاقتي بمحاسبي لوقت طويل.. دون ذكر أن السفر يوم الأحد سيجعلني أعود للمنزل مرهقا للغاية، وعلي أن أباشر العمل بعد ذلك ببضع ساعات. وجهة نظر غير مبهجة. في نفس الوقت، لا تسنح لنا الفرصة للقاء شخص مثل المعلم "سامتينغ" كل يوم. حسن، ستكلفني هذه المحادثة غاليا! بصدق، لا أعرف ما الذي علي فعله. كل خيار يبدو لي صعبا، ولن أتمكن من اتخاذ قرار.

كنت وراء المقود واقتربت من "آبود". علي أن أقرر الآن لأنه، كي أغير تذكرتي علي أن أذهب إلى وكالة الأسفار التي في "كوتا" قبل أن تغلق. اقتربت من المكان الذي كان علي أن أختار فيه الطريق التي سأتبعها.

حاولت أن أرجح بين الخيارين، دون فائدة.

كنت سأربح وسأخسر في كلتا الحالتين. اختيار مستحيل. لم يكن اتخاذ القرارات أحد نقاط قوتي أبدا! لم أكن لألعب الطرة والنقش الآن، لن يكون هذا

عظيما: بعد خمسة أيام من تطوير الذات، علي أن أكون قادرا على الاختيار بكامل وعيي!

في النهاية انتهى وعيي إلى القول بأنه علي أن أعود إلى دياري بسرعة وأنني سأتمكن يوما ما من اكتشاف الجزء الذي ينقصني. بعد مضي ستة أشهر أو سنة سوف أنسى هذه المرحلة تماما. في حين أنه يمكنني أن أستفيد من المعارف الشخصية التي سيمدني بها المعلم على المدى الطويل، ربما طوال حياتي. وصلت إلى مفترق الطرق واتجهت جنوبا نحو "كوتا". مثلما قال "أوسكار وايلد" الجنون هو الشيء الوحيد الذي لا نندم عليه أبدا!

تذكرت تعليق الوزير الأول للمكسيك في الفترة التي كانت خلالها بلاده تدفع ديونها المجحفة. سأله أحد الصحفيين إن كان هذا يسبب له أرقا. أجابه بأن: كشف حساب ب 1000 دولار يمنعك عن النوم ليلا، في حين أن كشف حساب ب 100 مليار دولار، محاسبك هو الذي لن يستطيع النوم. استخلصت أن ديوني مازالت بدون شك قليلة.

استغرقت ساعة للوصول إلى "كوتا."

لم أحب هذا المكان. بالنسبة لي "كوتا" ليست "بالي". هناك كنا نجد أعلى نسبة سياح، إضافة إلى لاعبي ركمجة من أستراليا. في الليل، تتحول المدينة إلى علبة ليلية عملاقة. كان من المستحيل أن تسير لثلاث خطوات في الشارع دون أن يعترض طريقك أحد الجاويين ويعرض عليك المخدرات أو إحدى العاهرات. لك أن تختار. في السبعينات، كانت "كوتا" واحدة من مناطق الحج التي لا مفر منها للهيبيين في سلسلة حرف الكاف: كوتا، كاتمندو، كابل. سنة 2002،

"كوتا" رمز الفساد في الغرب، تم اختيارها من طرف تنظيم القاعدة لتخلد إحدى محاولات الاغتيال الأكثر دموية.

استغرق الطريق وقتا أطول مما تخيلت، ووصلت هناك في نهاية الظهيرة. وكالة الأسفار ستغلق أبوابها خلال عشر دقائق. توجهت بحماس في الطريق ذات الاتجاه الواحد أين يقع مكتبها. إنها معجزة، كان هناك مكان لركن السيارة أمامها بالضبط. عندما وصلت حذوه، تجاوزته قليلا حتى يتسنى لي أن أدخل سيارتي بطريقة عكسية. تنبهت حينها إلى أن السيارة التي كانت ورائي لم تتوقف عن السير، مع أن نيتي في ركن سيارتي كانت واضحة: لم أكتف بإنارة الضوء الجانبي مسبقا فحسب، لكن، قمت بانحرافة صغيرة أمام الموقف مظهرا هكذا أنني أنوي ركن سيارتي هناك. لا، لقد تبعني رغم ذلك، مانعا إياي من السير خلفيا بالسيارة. حافظت على انحراف سيارتي وعلى الضوء الجانبي المومض للحظة حتى أجعله يفهم ما كنت بصدد القيام به، لكنه لم يفعل شيئا: لم يعد أدراجه. فتحت نافذتي وأخرجت رأسي طالبا منه أن يعود قليلا للخلف حتى أتمكن من ركن سيارتي. لم تكن هناك سيارة أخرى وراءه، كان هذا سهلا. كان جليا أنه فهم قصدي، خاصة أنني أصاحب كلماتي بحركات مفسرة من يدي. دون جدوى. كان قادما من الغرب، في أواخر الخمسينيات، كان وجهه أحمر قرمزي، من عوارض الشقر الذين يتعرضون للشمس أو يشربون الكحول بكثرة. في حالته تلك، تخيرت التفسير الثاني. كان يبدو أنه واحد من أولئك الأشخاص الذين لا يتمتعون بأي نوع من الليونة في التفكير ولا يريدون أبدا أن يتركوا أي شيء كان. قوة هائلة من الجمود كانت تبدو في هيئته. كان يبدو ثقيلا أيضا أثقل من سيارته، راسخا تحت سقفها. جددت حركاتي وأقوالي. لا شيء. وجه

بليد، أكتاف متصلبة، ذراعان جامدتان، يدان متحجرتان فوق المقود: كل جسمه كان يعبر على أنه لن يتنازل. لأن التنازل بالنسبة له كان أن يعود للخلف مسافة مترين. بدا لي ذلك وكأنه حقيقة: في حياته، علاقته بالآخرين لا بد أنها محكومة بنسب من القوة، ودون شك يظن أن إجابة طلب شخص ما تعود للتنازل عن حقه، وتبدي ضعفه. بلى، أجل، هو هذا! لا بد أنه يحمل اعتقادا من نوع:" في الحياة، لا يجب عليك أن تنهزم، لا تتنازل عن أي شيء" في ظروف مختلفة، كنت لأرى أن هذا مضحك جدا، حتى إن كان يجب على الذين يحيطون به أن لا يضحكوا كل الوقت. لكن وكالة الأسفار ستغلق بعد خمس دقائق. لم يكن لدي خيار، علي أن آخذ هذا المكان، ليس لدي الوقت للبحث عن مكان آخر. عادت إلي كلمات الحكيم كالصدى: لدينا دائما خيار. كررت لنفسي القول بأنني أستطيع محاربة هذا الجمود. قطعت التواصل، وضعت الفرامل اليدوية وتركت سيارتي وسط الطريق، مغلقا بها الشارع. ركضت نحو مكتب الأسفار وقدمت تذكرتي للموظف الذي كان قد بدأ في إغلاق الأضواء. أصدرت أزرار لوحة مفاتيح كمبيوتره أصواتا، طغى عليها بعد قليل صوت زمور سيارة متواصل. قدمت له بطاقتي المصرفية، شاعرا بالقليل من القلق، صليت كي لا يرفض الإجراء من طرف مركز الدفع. تطلبت العملية بعض الوقت، بدا هذا لي نذيرا سيئا، لكن، في النهاية، علمت أن النظام وافق على جعلي فقيرا أكثر مما أنا عليه.

صارت محفظة نقودي خفيفة هكذا، التذكرة الجديدة في جيبي، عدت إلى سيارتي. كان السائق قد جن من الغضب. كانت يده تضغط على زمور سيارته دون توقف، ولم يكن يكف عن ذلك إلا ليسمعني سيلا من الشتائم. وجهت

إليه أجمل ابتسامة لدي، والذي ضاعف من غضبه، انطلقت، تبعني عن قرب شديد حتى ظننت أنه سيدهسني. كان هذا سخيفا بالفعل. فهمت بطريقة أفضل قصة الاختيارات التي تحدث عنها المعلم. الغريب جدا لدى هذا السائق، كان غياب خيارات التصرف التي تمليها عليه شخصيته. لم يكن قادرا لا على العودة إلى الخلف، لا على التفاهم، لا على الانتظار. لم يكن يستطيع سوى المرور بقوة. لم يكن هذا الرجل حرا. كان على العكس، مأخوذا باعتقاداته. كان هذا جليا. 15 يوما قبل الآن، كنت لأقول ببساطة: "يا له من أحمق!" اليوم، عرفت أن الذكاء لم يكن على علاقة بتصرفاته الشاذة.

تفاجأت لتفهمي لتصرفات كنت لأرفضها في الحاضر القريب مع نوع، دون شك، من عدم الغفران. مأخوذا بهذا التفهم وهذا التعاطف، تملكتني رغبة في أن أراقب الناس وأن أنصت لهم أكثر وأن أحاول اكتشاف المعتقدات التي تقبع وراء هذه التصرفات.

وجدت نفسي قريبا من البحر وتوقفت أمام ساحة محل جميل لبيع القهوة والمثلجات. لدي عادة إنفاق النقود في محاولة مني لمواساة نفسي في ضائقاتي المالية.

طلبت كوكتيل شوكولا وأفوكادو، مزيج غريب لكنه لذيذ، وجلست باسترخاء على أحد الأرائك المصنوعة من خشب الساج، مقابل البحر. لا بد أن الرياح تنفخ بقوة لأن الأمواج كانت عالية. الشمس الآخذة في الغروب أشبعت الساحل بضوئها البرتقالي الحار، مداعبة المنازل والأوجه. كان الشاطئ يمتد أمام ساحة المقهى، الذي كان يمتلأ بالزبائن شيئا فشيئا. من الجيد أن تكون

وحدك دون أن تكون وحيدا تماما، أن تستمتع بالجو الذي ينمو دون أن تضطر للمشاركة في خلقه.

على الطاولة المجاورة، كان هناك شخصان شابان يتناقشان.

هي، رقيقة للغاية وجميلة، شعرها كستنائي وعيناها زرقاوان، عابسة قليلا، هو، لم يكن ضخما لكنه دون شك قوي البنية، رقبته غليظة وشعره بني قصير للغاية، كانت تناديه "ديك". كانت تحدثه عن عرض الظلال الصينية الذي حضرته مساء البارحة والذي يبدو أنه أبهرها. كان يستمع إليها بانتباه، مع أنه بدا واضحا لي، أن بعض الظلال، حتى إن كانت فنية، لم تكن لتشد انتباهه. ربما مسته الرقة التي كانت تبديها. شعرت أنهما لم يكونا حبيبين، لكنها تحس نحوه بمشاعر لم تفصح عنها بعد. كان يناديها "دوريس"، وكنت غير قادر على معرفة شعوره نحوها. كان "ديك" واحدا من الرجال الذين يتمتعون بفحولة كبيرة لا نستطيع معها معرفة إن كانت المشاعر والأحاسيس تدخل في تكوينهم الطبيعي أم لا. استمتعت بتخيله كأحد رجال الكهوف جارا رفيقته من شعرها كي يأخذها إلى فراشه.

على الطاولة المجاورة لهما، جلس راكب أمواج في عمر المراهقة، لا هو بالعابث ولا بالمتفاخر، يترشف ويسكي مخلوطا بالكولا. كان يتأمل "دوريس" باهتمام، لكن كان لدي إحساس بأن أي فتاة أخرى مكانها كانت لتثير فيه نفس الاهتمام. كان لدينا نقطة مشتركة أنا وهو: لم تغب عنا كلمة واحدة من الحوار الذي يجري بجانبنا.

بعد مضي ربع ساعة، انضمت إلى "ديك" و"دوريس" فتاة في مثل سنهما مصحوبة بشخص لا يعرفانه على ما يبدو.

-مرحبا "كايت"! صاح "ديك."

-مرحبا "ديك" مرحبا "دوريس."

شعرت ب-"دوريس" تنغلق تدريجيا. بدت منزعجة. كان من الواضح أنها لم تكن تحبها. ماذا كانت تمثل إحداهما للأخرى؟

سمراء، أنيقة بشكل مفرط، بدت "كايت" مثيرة أكثر منه جميلة. كانت ترتدي كعبا عاليا جدا بالنسبة لمكان يقع على الشاطئ، تنورة قصيرة جدا وأعلى ثدييها ظاهر للعيان. لم يكن ثدياها كبيرين لكن يبدو أن القديسة "واندربرا" (اسم ماركة لحمالات الصدر تعطي حجما زائفا للثديين) مرت من هناك. والتأثير الذي أحدثته كان رائعا. حتى أن راكب الأمواج لم يشح ناظريه عن فتحة قميصها الواسعة. كانت تتحدث مبتسمة، لتبدو رائعة للغاية في وضعها كفتاة شابة.

-أنا آسفة، لقد تأخرت: غيرت ملابسي لدى رجوعي من الشاطئ ولم أتمكن من العثور على أغراضي. لم أستطع أن أجد سروالي الداخلي.

كان واضحا أن راكب الأمواج المراهق أراد معرفة إن كانت وجدت سروالها الداخلي أم لا: نزل نظره من فتحة القميص المفتوحة نحو التنورة القصيرة جدا وثبت عينيه عليها بشدة، منتظرا اللحظة المناسبة التي سيحصل فيها على الإجابة. شعرت "دوريس" بسخطها قد ارتفع درجة. "كايت" كانت راضية.

-أقدم لكما "جينز"، التقينا على الشاطئ. هل تعرفان: نحن الاثنان ندخن سجائر مالبورو الخفيفة بنكهة النعناع، هذا رائع! قالت "كايت."

هزيل للغاية، خداه للداخل، ابتسامته هزيلة، عرف "جينز" بنفسه على أنه قادم من بلد أوروبي صغير، "الدنمارك" تحديدا. شدة اتساع صلعه دفعته لحلاقة رأسه بالكامل، طريقة ذكية لجعلها مخفية تحت أنظار الآخرين. كانت لديه في المقابل لحية شقراء داكنة كثيفة. كأنه أراد أن يملأ بلحيته الفراغ الذي خلفه الصلع في رأسه. كان صوته ناعما، لدرجة كان عليك معها أن ترهف السمع حتى تتمكن من فهم كلامه. كان يجيب عن الأسئلة التي طرحها البقية بنوع من المهانة تفقد المرء قيمته، بدا كأنه يعتذر لإزعاجهم. نظر إليه "ديك" عاقدا حاجبيه، كأنه يتساءل لأي فصيلة حيوانات ينتمي هذا الكائن. بالنسبة له، لم يكن عاديا أن يكون الرجل مسحوقا لهذه الدرجة. كان "جينز" يحاول ألا يحدث صداما في الوسط حتى أنه بدا وكأنه شفاف. بعد مضي خمس دقائق، نسيه الجميع، لم يعد موجودا.

ما الذي يدفع شخصا للتصرف بهذه الطريقة؟ ما الذي يؤمن به ليقوم بهذا؟ هل هي من نوع "سيتركني الآخرون وشأني إن جعلت نفسي لا مرئيا"؟ على أية حال، كنت مقتنعا أن "ديك" يؤمن فكرة معاكسة لهذه، من نوع: "سوف يحترمني الآخرون إن كنت قويا"!

كان "جينز" ينظر بحب إلى "كايت"، التي لم تلق عليه نظرة واحدة منذ قدمته إلى الآخرين. تجاهلته تماما. لماذا أدخلته إلى المجموعة؟ للمتعة التي يحققها الظهور مع أحد المعجبين الذي سيثبت شدة إغرائها؟ كي تغيض "ديك"؟ بدا

لي في الحقيقة، أنها كانت تحاول لفت انتباهه. لا بد أن "دوريس" شعرت بذلك بدورها لأن نظراتها المستاءة كانت تبعث ومضات لحظية من الكره.

سجل النادل الطلبات.

-لاغوني أزرق، طلبت "كايت."

-مياه غازية، قالت "دوريس."

-ماذا تود أن تشرب؟ سأل "ديك" "جينز."

-أي شيء.

-خذ قرارا!

-حسن، سأشرب ما تشربه.

-اثنان من الجعة، طلب "ديك."

كان "ديك" يبدو راضيا من سير يومه.

-كانت هناك أمواج حقيرة اليوم، كان هذا عظيما. في النهاية كان يوما لم يتسبب في انزعاجي، قال "ديك."

-كان رائعا أن نرى ثورة الطبيعة، أضافت "دوريس."

-هذا صحيح، همس "جينز."

-أوه لا، كان اليوم متعبا، قالت "كايت". كان هناك شابان لم يكفا عن مغازلتي. سئمت هذا. لم يتركاني وشأني.

-ما عليك سوى ركوب الأمواج، أجابها "ديك". في الماء، الشبان لا يرون سوى الأمواج.

-آه لا! لا أحب ركوب الأمواج، إنهم يقعون كل الوقت، ويمكن أن أشعر بالألم في ثديي إذا ما وقعت على بطني.

على الطاولة المجاورة، انتقلت نظرات راكب الأمواج المراهق من التنورة القصيرة جدا إلى فتحة القميص الواسعة.

قررت "دوريس" عدم المحاربة. برقتها التي تشبه رقة بتلات الأزهار، كانت من الأشخاص الذين يرغبون في أن يحبوا لما هم عليه، لدرجة أنها طورت فكرة أنها إن قامت ببعض الجهد كي تروق للآخرين، فلن يحبوها لما هي عليها وإنما لما تبدو عليه.

-هل تعرفون لماذا يقذف الرجل على مراحل؟ صرخت "كايت" في المجموعة، خالقة نوعا من الصمت الغاضب المنتظر لما سيحصل بعد ذلك.

بدا كأن السؤال قد راق لـ "ديك" وانتظر الإجابة. عكس وجه "دوريس" اشمئزازها من بذاءة السؤال. ابتسم "جينز" بتملق.

-لأن المرأة تبتلع على دفعات، أضافت مشجعة نظرات "ديك."

ضحك "جينز" ببلاهة، "ديك" بصخب. "دوريس" كانت مذعورة .

لم يفق راكب الأمواج المراهق من صدمته. لم يكن يعرف بوجود فتيات كهذه. فغر فاه. نظراته كانت معلقة عليها، التهمها بعينيه. لا بد أنه فكر بأنها

رائعة في الفراش. لم أكن متأكدا من هذا كثيرا: حسب رأيي، كانت مهتمة بالتأثير الذي تحدثه على الرجال أكثر منه بالرجال أنفسهم.

ما الذي يدفع فتاة للتظاهر بالإثارة لدرجة تجعلها تحكي قصصا فاحشة على الملأ؟ ما الذي تريده؟ ما الذي تظنه بنفسها وبالآخرين؟ دون شك كانت لديها حاجة ماسة للإغواء، لتبث لدى الآخر رغبة جنسية. بدأت أتصور بعض المعتقدات الممكنة: "أنا مغرية إذن أنا موجودة" أو ربما "تصبح لدي قيمة إذا ما نجحت في جذب الرجال". على أيه حال، شعرت بأن إغراءها القاسي لم يكن خيارا حقيقيا، كانت تجيب الحاجة التي كانت تستعبدها.

بدأت أستمع لحديث الآخرين حتى أستمتع بتخمين معتقداتهم، لكن كلما اكتشفتها كلما ازددت حزنا لمعرفة أن البشر ليسوا أحرارا. غياب هذه الحرية لم يكن بسبب ديكتاتور فظيع، لكن نتيجة لما يعتقده كل واحد عن نفسه، عن الآخرين وعن العالم.

على الرمال، كان هنالك أهال ينظمون ألعابا شاطئية لأطفالهم. راقبتهم لوهلة، واستغربت لسماعهم يحثون أطفالهم على التنافس مع الآخرين. لا يكفي أن ينجحوا في الأنشطة التي يقومون بها، لكن عليهم أيضا أن يهزموا رفاقهم، أن يصبحوا أفضل منهم. ما الذي يعتقده هؤلاء الأهل؟ أنه ليست لنا قيمة إلا عندما نتفوق على الآخرين؟ أن النتيجة لا تعتبر جيدة إلا عندما تكون أفضل من نتائج زملائنا؟ شعوري كان أن المنافسة الوحيدة الممكنة هي التي يمكن أن نخوضها مع أنفسنا. أن نتفوق على أنفسنا عوض أن نتفوق على الآخرين. قال لي المعلم أننا لا نستطيع الحكم على اعتقاد ما إلا من خلال النتيجة التي

يحدثها. ما هي النتائج الممكنة في هذه الحالة؟ نوع من التحفيز؟ بالتأكيد. تشجيع على التقدم. لكن ما هي نتائجها على العلاقة مع الآخرين؟ هل سنستطيع عيش صداقة، عشق، عندما تكون عندنا عادة مقارنة أنفسنا بالآخرين؟ هل سنتأرجح بين الإحساس بالفوقية والدونية؟ عدم الاهتمام والاهتمام؟ الشفقة والغيرة؟ هؤلاء الأهل لم يكونوا على إدراك لما يغرسونه في أطفالهم، والذي سيتحكم في حياتهم الاجتماعية. دوافعهم، تصرفاتهم، مشاعرهم ستكون مطبوعة ببعض المعتقدات المختزلة في سن كانوا فيها يتقبلون الأمثلة المقترحة عليهم من قبل المحيط.

كيف تمكن الأهالي أصلا من تطوير هذه المعتقدات؟ هل حفظوها بدورهم عن أهاليهم، أم قاموا بمجابهة أشخاص تنافسيين وشعروا بأنهم قد أهينوا، هل أرادوا ألا يعيش أطفالهم نفس الموقف الذي أثر بهم؟ في هذه الحالة، أين كان خيارهم؟ ألم يكتفوا بالخضوع لدور المذنب؟

طاولة أخرى إلى جانبي وفرت لي فرجة أخرى.

رجل من نوع "أعرف كل شيء" كان يتناقش مع سيدة كانت تبدي له بلباقة إعجابها بمعارفه الواسعة في حين أنها في الحقيقة كانت تحاول إخفاء مللها. حول كل موضوع، كان يجبر نفسه على إبراز معارفه. بل عاتبها على بعض التداخل في كلامها لما كانت تتحدث، والذي كان نادرا نظرا لضيق المجال الذي يتركه. فكرت ما الذي يثير التذمر أكثر في هذه الوضعية، لشدة ما بدا لي في حاجة ماسة لأن يبدو بمظهر العارف. كان هذا ضرورة بالنسبة له. ربما يظن أنه لا وجود له دون معارفه هذه؟ ربما كان يخشى أن يبدو جاهلا أو أحمق؟ أو ربما

يظن أنه لن يكون محبوبا إن لم يظهر سعة اطلاعه؟ ألهذا يجد نفسه مجبرا على أن يفعل هذا؟

النقطة المشتركة بين كل هؤلاء الأشخاص كانت الحرية القليلة التي يتمتعون بها.

كانوا يبدون مأخوذين بمعتقداتهم، ومعتقداتهم هذه كانت تحدد لهم اختياراتهم وتملي عليهم تصرفاتهم. أصبحت مدركا لهذا بشكل أفضل. يكفيني الآن أن أسمع وأراقب لبعض الوقت أحد الغرباء كي أعرف المعتقدات التي تسيطر على تصرفاته.

كنت "دافيد فانسيت" في "الغزاة". أقوم بتعيين الكائنات الفضائية بأصابعهم الصغيرة المجعدة، كانوا في كل مكان وتمكنوا من غزو الكوكب. كوكبي أنا تم غزوه من طرف معتقدات الناس. كانت في كل مكان تحكم تصرفاتهم.

18

عدت إلى سيارتي، غير حزين لمغادرة "كوتا" كانت حاناتها وأجواؤها مبالغا فيها. وصلت إلى كوخي في الليل المظلم الحار، وبدا لي حمامي اليومي مقدسا.

بدت لي صبيحة يوم السبت ممتدة إلى ما لا نهاية.

أمضيتها على الشاطئ مراقبا القلة من الرائح والقادم من الصيادين، تحت ظل نخلة. انتظرت حلول الظهيرة بفارغ الصبر. تساءلت ما هي هذه المعرفة الكبيرة التي احتفظ بها المعلم للقائنا الأخير. في الحقيقة تقبلت بصعوبة فكرة أن يكون هذا لقاءنا الأخير. اعتدت على محادثاتنا، وكل واحدة منها جعلتني أنتبه لما أنا عليه لذلك لم يكن من السهل أن استوعب أنها سوف تنتهي.

لماذا قررت من البداية لقاء هذا المعالج؟ ما هذه الصدفة العجيبة التي جعلتني أسمع الناس يتحدثون عنه وأذهب لرؤيته مع أنني كنت مقتنعا أنني لست في حاجة إليه؟ كم هي طريفة الحياة، هناك أحيانا قرارات تبدو تافهة لكن نتائجها تغير سير حياتنا. وبعد سنوات نتساءل كيف كانت حياتنا لتجري لو لم نتخذ في ذلك الوقت ذلك القرار التافه إنما قرارا آخر.. كم مناسبة من هذا النوع تركتها تضيع من بين يدي دون أن أنتبه لها؟ كم من مرة في ملايين الالتفافات

الصغيرة في حياتي، قمت بالتصويت للخيار الأسهل، في حين أن الخيار الآخر كان ليحدث نتائج عظيمة؟

تناولت غداء سريعا في ساعة مبكرة. أردت أن ألتقي بالمعلم في بداية فترة الظهيرة حتى أتمكن من قضاء وقت أطول معه. حماسي للاستفادة من هذا اللقاء ازداد بكونه اللقاء الأخير، لكن أيضا علي أن أعترف، بسبب ما كلفني إياه. الصدفة في الحقيقة هي من أرادت أن أصل إلى منزله تحديدا في الساعة التي كان من المفترض أن تقلع عليها طائرتي. كانت الحديقة مثلما وجدتها في أول يوم، بسيطة وجميلة، مع الرائحة الرقيقة للأزهار النادرة. تقدمت ولم أر أحدا للوهلة الأولى. الحجرة أين اعتاد استقبالي في العادة كانت فارغة. ما من صوت حولها. ربما جئت مبكرا جدا. درت حول المنزل: لا وجود لكائن حي. جلست على سياج صغير بالقرب من المدخل وانتظرت. الصمت المسيطر على المكان كان يقطع فقط بأصوات حفيف أوراق الأشجار والصيحات المعهودة للسحلية بدون شك تختبئ في أحد الهياكل. صمت كهذا كان ممهدا للسكينة، وللمرة الأولى، قلت لنفسي أن العيش في المدن الكبيرة لا يناسبني. مضت عشرون دقيقة كاملة قبل أن ألمح المرأة الشابة ذات الشنيون. تقدمت نحوها، خمنت سؤالي.

-المعلم "سامتينغ" ليس متفرغا اليوم، قالت لي.

-بلى، أعرف أنه كان مشغولا هذا الصباح، لكنه خطط لاستقبالي في فترة الظهيرة. ربما لم يخبرك بهذا. هل بإمكانك إعلامه بمجيئي؟

-لكنه ليس هنا.

-حسن، بدون شك سوف يتأخر. في هذه الحالة، سوف أنتظره في الحجرة، قلت وشرعت في المشي.

-لا، لن يأتي اليوم، قال لي عندما غادر أنني سأراه غدا.

-لا بد أنك مخطئة، أكدت لها، أؤكد لك أنه لدي موعد معه اليوم، من المستحيل أن ينسى.

-لم ينس، لكنه ليس هنا، و نت لن تراه.

تكلمت بنفس عفويتها المعهودة، غير مهتمة لجزعي.

-كيف، لم ينسى؟ قلت لها، شاعرا بغضبي يتصاعد.

-لا، قال لي بأنك ستجيئ في الواقع ظهيرة اليوم.

-ما هذه القصة؟ انفجرت قائلا. غيرت تذكرة طائرتي بناء على طلبه، عن عمد كي أراه. علي أن أراه. أين هو؟

-لا أعرف.

فاق الوضع الحد المعقول. شعرت بأنني أعيش كابوسا.

-هل طلب منك أن تنقلي لي رسالة؟

-ألم ترى الرسالة التي تركها لك؟

-أين؟

-في الحجرة.

ركضت إلى هناك، مشمئزا من طريقة سير الأحداث. لماذا فعل هذا لي؟ كان يعرف ما الذي سيكلفني إياه تغيير موعد الرحلة. ما العذر الذي سوف يقدمه لي؟

كانت الرسالة موضوعة على الصندوق المصنوع من خشب الكافور. ورقة مصفرة، مطوية على أربع. فتحتها. ميزت خطه الخفيف والمتعرج:

الخذلان، الجزع وربما الغضب الذي ستشعر به عندما تشرع في قراءة هذه الرسالة، سيرافق تحولك نحو بعد جديد لوجودك الإنساني، وجود لم يعد في حاجة لي ليواصل تقدمه.

بأخذك لقرار المجيء إلى هنا اليوم، تعلمت الشيء الأهم، بتطويرك لمهارة تبدو لك خاطئة اليوم: القدرة على القيام بخيار يكلفك غاليا، وإذن رفض شيء آخر في المقابل، بكلمات أخرى القيام بالتضحيات لتتقدم في طريقك. لقد تعلمت هذا، العائق الأخير أمام ازدهارك تحطم بهذا الشكل. تتمتع الآن بقوة سوف ترافقك في كل حياتك. الطريق المؤدية إلى السعادة تتطلب أحيانا رفض الحلول السهلة، كي تتبع رغباتك العميقة.

رحلة طيبة، سامتينغ.

بقيت صامتا لوقت طويل. مررت من الغضب نحو الصدمة، من الصدمة نحو الشك، من الشك نحو الفهم، من الفهم نحو التقبل، من التقبل نحو الشعور بالامتنان، من الامتنان نحو الإعجاب.

كانت لدى هذا الرجل الجرأة ليجعلني أجتاز اختبارا، مع علمه بأنني سألوم وربما لن أسامحه. فعل هذا لأنه يعلم أنه ليس من الكافي أن أفهم وحسب، أو أتقبل فكرة ما كي أتقدم. كان علي أن أعيش تجربة صعبة، مؤثرة على المستوى الشخصي، وهذا ما أهداني إياه.

بغيابه، اختار أن يرفض وداعي، شكري وامتناني لكل ما قدمه لي. وبهذه الحركة، وضح لي بنفسه كل ما علمني إياه، مدعما هكذا قوة رسالته. فن عظيم.

بقيت وحدي لبعض الوقت، أتشبع للمرة الأخيرة الجو المميز لهذا المكان المفعم بالروائح، ثم توجهت يداي نحو رقبتي وجذبت القلادة التي في شكل صليب بروستاتتي التي كنت أرتديها. أخذتها برفق ووضعتها في العلبة الصغيرة، العلبة الصغيرة الموضوعة على الرف.

19

واصلت طريقي وبعد أن توقفت لبعض الوقت في القرية كي أملأ حقيبة المؤونة، توجهت شمالا بسرعة. بعد نصف ساعة، ركنت سيارتي، شددت رباط حذائي، وضعت حقيبتي على ظهري واتبعت أحد المسالك. بعد مضي بضع دقائق من المشي، أحسست بحر شديد، وأخذ العرق يتصبب على جبيني. رفعت عيني، يدي تظللهما كي أحميهما من أشعة الشمس. مهيمنا علي بارتفاعه، مثل عملاق عظيم، جامد ولا يتزحزح، كان جبل "سكو وو" أمامي.

تطلب مني تسلقه أربع ساعات. أربع ساعات من الجهد، وفي بعض اللحظات من المعاناة. كان الانحدار شديدا أحيانا، ولم أكن قادرا على التنفس. من آن لآخر كان المسلك يرافق الجبل على نفس الارتفاع، فكنت أتزود بالهواء المشبع برائحة الشجيرات الاستوائية التي كنت أجهل أسماءها. كلما تقدمت أكثر صعودا كلما صار المنظر مذهلا.

وصلت إلى القمة مجهدا، مرهقا، لكن شاعرا برضا كبير. تمكنت من التغلب على كسلي، أن أتحكم في شجاعتي وقوتي، أن أسير في قراري إلى النهاية، والآن أشعر بأنني قوي، واقفا فوق الجبل، مثل قبطان في مقدمة مركبه، مسيطرا على الأرض، حقول الأرز والغابات، النسيم المصفر في أذني، أحاطني برائحة المغامرة.

بالنسبة لي، حياة جديدة قد بدأت، ومن الآن فصاعدا ستكون حياتي، ثمرة قراراتي، اختياراتي، رغبتي. الوداع أيتها الشكوك، أيها الخوف من أن يحكم علي، من أن أفشل، من ألا أكون محبوبا. سوف أعيش كل لحظة بوعي، في انسجام مع نفسي ومع مبادئي. سأظل متواضعا، لكن متذكرا أن أول هدية أقدمها للآخرين هي توازني. سوف أتقبل الصعوبات على أنها اختبارات علي تجاوزها، هدايا من الحياة كي أتعلم ما علي تعلمه كي أتقدم إلى الأمام. لن أكون ضحية للأحداث بعد الآن، لكن بطل اللعبة التي سأكتشف قواعدها شيئا فشيئا، والتي ستظل نهايتها تحتفظ بشيء من الغموض.

كان النزول سريعا، وقمت بالتفافة كي أجلس بجانب البحيرة في سفح الجبل، والتي كانت تحكمها آلهة المياه. مكان ساحر، مشبع بالجمال. الشمس التي تغيب على سطح البحيرة الخالي، كانت ستختفي بعد لحظات لتترك المكان للسحر يكتنفه. بقعة واسعة من المياه المظلمة تحت سيطرة الظل الضخم لجبل "سكو-وو". لا وجود لأي عمران على مدى البصر. لا وجود لأي كائن حي. صمت شامل. والمعبد الأسود المسقوف بهيكل بوذي كان يبدو في شكل ظلال صينية على انعكاس السحب البيضاء، على سطح البحيرة. بقيت جالسا لوقت طويل، أتشرب سكون المكان، أتشبع الهدوء والجمال.

عدت ليلا إلى كوخي، منتبها إلى الطريق كي أتجنب السيارات البالينية العديدة التي تسير كلها مطفأة الأضواء.

وصلت متعبا وشاعرا بالخفة في نفس الوقت. ذهبت إلى البحر. كان القمر يغرق شاطئي في جو خلاب. لا يوجد أحد. عائلات الصيادين تركت المكان منذ وقت طويل.

نزعت كافة ملابسي وغطست في الماء الدافئ عاريا تماما. سبحت بصمت، مسترخيا وحرا، شاعرا بالماء ينساب على جسمي. شعرت بأنني أهتز بفعل حركات الأمواج الخفيفة وأذوي في المحيط. أخذت نفسا عميقا وغطست تحت الماء سابحا نحو الأعماق. أمسكت حجرا كان فوق الرمال. وزنه مكنني من البقاء بين مستويين من المياه، لم أنجذب نحو السطح ولم أسقط في الأعماق. تقوقعت حول نفسي ضاما ركبتي إلى صدري ماسكا الحجر بين يدي. بقيت لبعض الوقت هكذا أتحدى الجاذبية، وسك المياه الدافئة والناعمة، شاعرا بالأصوات المكتومة للأمواج على السطح.

20

استيقظت فوق الرمال. كانت الشمس ساطعة، لم أكن أذكر أنني نمت على الشاطئ. كنت أرتدي ثيابي، هذا يعني أنها لم تكن الأمواج هي التي حملتني إلى هنا، خلال سباحتي المسائية. وقفت وتمطيت، مالئا رئتي بالهواء القادم من العمق. شعرت بنفسي رجلا جديدا.

كانت مراكب الصيادين في طريق عودتها، منارة بالضوء العمودي للصباح. خطوت بضع خطوات في الماء، نحتت قدماي آثارا محكومة بأن تمحى من قبل الموجة القادمة في هدير خفيف للزبد. في العمق، كانت هناك باخرة تمخر عباب الماء، تحمل مئات العابرين لاكتشاف "سيلاب"، "جافا" أو "بورنيو."

لمحت طفلة، وحيدة على الشاطئ، بدون شك طفلة أحد السياح الندر الذين يقدمون لاكتشاف هذا المكان. كانت تبدو في الخامسة أو السادسة من عمرها. ماسكة بعصا، كانت ترسم بحماس شيئا ما على الرمل. رأتني أقترب، وعندما وصلت حذوها، ابتسمت لي ابتسامة سريعة، وعادت فورا إلى رسمها.

-ما هذا؟ سألتها.

-سفينة بالطبع، أجابت بنبرة استياء، مواصلة الرسم.

-هل تحبين السفن؟

-أجل، في السابق كنت أرغب في أن أصبح قبطان سفينة.

-غيرت رأيك؟

-أجل، لأن هذا صعب جدا بالنسبة لي.

قالت هذا بشيء من الندم.

-كيف تستطيعين معرفة هذا؟

-جدي قال هذا لي. قال بأن هذه مهنة للأولاد وليست للبنات.

كانت تصقل رسمها، مظهرة موهبة فنية ذاب لها قلبي.

-ما اسمك؟

" -آندي."

-اسمعي يا "آندي" انظري إلي.

أفلتت العصا والتفتت إلي. جلست على ركبتي فوق الرمل كي أصبح في نفس مستواها.

-أنا متأكد من أن جدك يحبك كثيرا ويريد لك الخير. لكنني سأخبرك شيئا. مثل سر ستحتفظين به للأبد. هل تودين هذا؟

-أجل.

" -آندي"، لا تدعي أحدا أبدا يخبرك بأنك لست قادرة على القيام بأمر ما. لك أنت أن تختاري وأن تعيشي حياتك.

نظرت إلي في عيني ولبثت منتبهة لوهلة. ثم اختفى مظهرها الجدي تدريجيا تاركا المكان لابتسامة أنارت وجهها. ابتعدت في مشية واثقة، نظراتها موجهة نحو البحر، حيث كانت الباخرة تشق طريقها نحو الأفق.

تمت

المحتويات

5 1

9 2

10 3

13 4

29 5

34 6

40 7

55 8

62 9

67 10

73 11

79 12

100 13

112..... 14

114..... 15

129..... 16

147..... 17

160..... 18

165..... 19

168..... 20